المسيحية

بين النقل والعقل

تأليف

دكتور

عبد الفتاح أحمد الفاوى

كلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٩٢

الاهـــــداء

الى

((الذين قالوا انا نصارى

ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا

وأنهم لا يستكبرون))

مقدمة :

الحمـد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على أشرف المرسلين نبينا محمـد وعلى آله وصحبه ومن تبعه أجمعين .

وبعـــد ..

فإذا كان صحيحا أن أهل كل دين وقوم كل نبى أعـلم بدينهم ونبيهم وأقدر على الكتابة فيه من غيرهم وأصدق فصحيح أيضا أن المسيحية لا تعـدو الإسـلام « إن الدين عند الله الإسلام » وأن عيسى نبى عندنا من كفر به فهو كافر ولا فرق بين إنكار نبوته وإنكار نبوة محمد كلاهما فى نظر الإسلام كفر . « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[1] .

والفرق بين عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحيين فى عيسى عليـه السـلام أدق من الشعرة كما قال النجاشى لجعفر بن أبى طالب ومن معه ممن هاجروا إلى الحبشة من المسلمين إذ طلب النجاشى من جعفر أن يقرأ عليه شيئا مما أنزل على محمد فى شأن عيسى فقرأ عليه صدر سورة مريم فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ثم قال النجاشى إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . وعندما ذكر وفد قريش للنجاشى أن المسلمين يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما سأل ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر نقول فيه الذى جاء به نبينـا صلى الله عليه وسلم هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى

---

(١) الشورى ١٣ .

مريم العذراء البتول . فضرب النجاشى الأرض بيده فأخذ منها عودا ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود . وقال للمسلمين اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى (الشيوم الآمنون) من سبكم غرم . قالها ثلاثا ما أحب أن لى دبرا من ذهب وإنى آذيت رجلا منكم(٢) .

(والدبر بلسان الحبشة الجبل) .

فالفرق بين ما جاء به الإسلام وما عند المسيحيين عن عيسى فرق ضئيل يقولون عنه إنه الكلمة ونقول إنه باالكلمة كان ويقولون إنه روح الله ونقول إنه روح من الله « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »(٣) ونقول إنه رسول الله ويقولون إنه ابن الله أو الله الابن . ونقول لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه ويقولون صلب وقتل وقبر وقام ثم رفع بعد ذلك .

ومجىء المسيح لم يكن حادثا طارئا عند المسيحيين بل كان قصد الله الأزلى منذ تأسيس العالم أن تخلص البشرية على يد المسيح الأزلى فكأن موت المسيح على الصليب أقام قنطرة على الفجوة التى كانت قائمة بين الله والناس . وكان الله قادرا أن يمحو خطيئة آدم والبشرية بدون فداء أو صلب أو قتل لكن الله لا يكتفى بأن يمحو الخطيئة بل يمحوها على طريقة تحمل الانسان على كرهها ومقتها ومن ثم كان الصلب الذى أعلن فيه كان غضب الله وألمه إزاء مظالم العالم وأخطائه ومساوئه ونمثل فيه كره الله للخطيئة وحزنه عليها(٤) .

ومع أن الأناجيل لم تكتب فى حياة المسيح ولا كتبها تلاميذه ومع

---

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٩٠/١ تحقيق عبد الرازق سعيد ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٣) النساء : ١٧١ .

(٤) حبيب سعيد : أديان العالم ٢٦٧ ، دار التاليف والنشر للكنيسة الاسقفية ، القاهرة .

أن سندها منقطع إلا أنها موثقة عندهم لأن السنوات التى انقضت بين موت المسيح وبين كتابة أول وثيقة كانت حافلة بنشاط عارم لنشر الدعوة المسيحية وحماسة منقطعة النظير فى الشهادة للمسيح وكتبت الأناجيل من وقائع حفظها الناس عن ظهر قلب وتناقلوها شفاها فى كثير من البـــلدان •

واحتلت قصة الآلام والصلب والقيامة التى لم تشغل إلا أسبوعا واحدا من حياة المسيح ثلث تلك الأناجيل •

ولم ينزل الإنجيل على عيسى فى شكل كتاب بل الأولى عندهم أن يقال إنه عندما أنزل الله يسوع إلى العالم أعطى للناس الإنجيـــل وكان مجىء يسوع المسيح إلى العالم بكل ما انطوى عليه بمثابة البشرى أو الإنجيل فالمسيح نفسه هو الإنجيل أما تعدد الأناجيل الموجودة فلأن كل واحد منها يركز على جانب من سيرة المسيح غير الذى يركز عليه الآخر فهى عندهم متكاملة لا متعاندة فأنجيل مرقس يتحدث عن حقيقة المسيح « من كان » والدور الذى قام به ولعبه على الأرض فى التاريخ البشرى وانجيل لوقا ومتى يتحدثان عن تعاليم المسيح أما إنجيـــل يوحنا فيبين المعنى العميق الذى استخلصه أتباعه من حياته •

وهذه الأناجيل وإن اختلفت فى بعض التفصيلات فهى متفقة فى الحقائق الجوهرية الأساسية وهى أن المسيح حال بين الناس يصـــنع خيرا ويشفى المرضى والنكوبين وأنه صلب وقام من الأموات ثانية وظهر للتلاميذ • والصورة التى تتفق الأناجيل فى رسمها للمسيح أنه كان انسانا تاما والها تاما ، ابن الانسان ، كلمة الله ، مخلص العالمين ورب الحياة !!

وعلى هذا فقبول الأناجيل فى نظر بعض الباحثين أولى من رفضها رغم اختلافاتها • يقول العقاد : ليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب عن سماع قريب فى الزمان والمكان ولأنها فى

أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال .... وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة فى كتابة التاريخ إذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يسهل القول باختلافها ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا وأسباب ذاك .

فإنجيل متى مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة وتؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الأول للميلاد ، وإنجيل مرقص على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب الأمم ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الإلهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل المحافظين والايمان بالهية المسيح . وإنجيل لوقا يكتبه طبيب يورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية . وإنجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن الكلمة Logos ووصف فيه التجسد الإلهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح وليس لدينا بعد قرابة ألفى سنة عمدة أحق منها بالاعتماد(٥) .

والكلمة والتثليث من عقائد المسيحية التى تمتد جذورها إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام عند اليهود فى بلاد اليونان . فكان اليهودى يرى فى الكلمة أكثر من صوت صارخ ، لها قوتها ولها وجودها الذاتى المستقل الذى يعمل عمله . فهى قوة حياة رهيبة . وربما لهذا

---

(٥) عبقرية المسيح : ١٩٤ ، ١٩٥ .

السبب كانت اللغة العبرية شحيحة فى كلماتها فهى لا تضم أكثر من عشرة آلاف كلمة بينما اليونانية التى يتحدث بها الشعب زادت كلماتها عن المائتى ألف كلمة •

والعهد القديم حافل بالإشارات إلى هذه الفكرة العامة عن قوة الكلمة فحينما خدع اسحاق ونطق بالبركة ليعقوب بدلا من عيسى البكر لم توجد هناك قوة تستطيع أن تسترد البركة ولم يبق للبكر سوى اللعنة(٦) • لقد خرجت الكلمة من فيه لتعمل عملها ولا تستطيع قوة على الأرض أن توقفها •

وفى بداية سفر التكوين يفتتح كل فصل من فصول قصة الخلق بالقول : « وقال الله •••• »(٧) إن كلمة الله قوة جبارة تخلق كل شىء من لا شىء وفى سفر المزامير نسمع إلى المرنم يقول : بكلمة الرب صنعت السموات(٨) وفى المزمور السابع بعد المائة « أرسل كلمته فشفاهم » وفى المزمور السابع والأربعين بعد المائة « يرسل كلمته على الأرض سريعا جدا يجرى قوله » وفى نبؤات أشعياء : لأنه كما ينزل المطر ••• هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى لا ترجع إلى فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح فيما أرسلتها إليه(٩) • ويتحدث الله على لسان أرمياء : أليست هكذا كلمتى كنار وكمطرقة تحطم الصخر(١٠) •

ومن هنا جاء إنجيل يوحنا يبدأ بالحديث عن الكلمة الكلمة التى ليست مجرد صوت صارخ بل قوة دافعة لها فاعليتها ، كلمة الله الذى به خلق العالمين • وقال معبرا عن المسيح إذا أردتم أن تروا

---

(٦) سفر التكوين ٢٧ •
(٧) السابق ١ : ٣ ، ٦ ، ١١ •
(٨) مزمور ٢٣ : ٦ •
(٩) اشعياء ٥ : ١١ •
(١٠) أرمياء ٢٣ : ٢٩ •

كلمة الله الأزلى وأن تنظروا قوة الله الخلاقة إذا أردتم أن تتصوروا الكلمة الذى به خلق الله الوجود بما فيه والذى وهب النور والحياة لكل إنسان تطلعوا إلى ربنا يسوع المسيح فهو كلمة الله قد تمثل بشرا فيما بينكم •

كما أن فكرة الكلمة كانت معروفة عند مفكرى اليونان ويرجع تاريخها إلى ٥٦٠ ق•م فالكلمة عندهم رائدة كل نظام يسير عليه الوجود والمهيمن على كل ناموس يخضع له والكلمة هى التى تعطينا القدرة على التأمل والتفكير ، (فاللوجوس) يسيطر على هذا الوجود كما يسيطر على كيان الإنسان •

ومن بين يهود الاسكندرية عاش الفيلسوف (فيلو) الذى أوقف حياته على دراسة الفلسفتين اليهودية واليونانية والذى نادى بأن اللوجوس كائن منذ الأزل وأنه الواسطة التى بها خلق الوجود ، ثم قال إن اللوجوس هو ذكر الله مطبوعا على العالم كما أنه وسيلة الله للخلق وعلى حد تعبيره : « كما يمسك الزارع المحراث ويتخذ منه واسطة لبعث الحياة والازدهار فى الأرض الجرداء هكذا الكلمة هى الواسطة لبعث الكون وتسيير دفته •

وهكذا اجتمعت كلمة اليهود واليونانيين على إدراك معنى اللوجوس كلمة الله • وجاء يوحنا ليعلن أن يسوع المسيح هو كلمة الله لبس جسم بشريتنا •

أما التثليث فمعناه — عندهم — يفوق قدرة العقل الإنسانى لأنه حقيقة كنه الخالق التى لا يدركها المخلوق لعجزه وقصوره • جاء على لسان المسيح : إن قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات •

ويروى أن الامبراطور « تراجانون » أمسك أمام الحبر يشوع صنما كان يعبده وقال له أرنى إلهك كما أريتك إلهى فقال له الحبر تعال

غدا عند الظهر فأريك إلهى ، ولما جاء أخذه إلى السطح وأشار إلى قرص الشمس وقال له حدق جيدا فإلهى هناك فبهر نور الشمس بصره ولم يقدر أن يفتح عينيه فقال له الحبر : هذا نور إلهى إن كنت غير قادر أن تفتح عينيك فى نوره فكيف تقدر أن تراه هو(١١) •

وقد شبه ابن خلدون فى مقدمته العقل بميزان الصائغ فإنه يصلح لوزن الذهب بمقدار معين وإذا وزنت به ما فوق طاقته تحطم • هكذا كل من يريد أن يزن الله بما هو فوق طاقة العقل سيحطم العقل ويضل فى غياهب الكفر والإلحاد •

ويجب أن نميز بين ما هو فوق طاقة العقل وبين ما هو ضـــد العقل وعقيدة الثالوث — عندهم — ليست ضد العقل بل فوق العقل •

هذه رؤية النصارى المسيح والمسيحية مجملة ، نبسطها — إن شاء الله — مع وجهات نظر أخرى فى ثنايا هذا المؤلف •

وبالله التوفيـــق ••

---

(١١) أديان العالم : ٣٠٠ .

آدم عليه السلام
وأكله من الشجرة

من حديث الله تعالى للملائكة فى قصة الخلق نستطيع أن ندرك أن آدم وإن خلق فى الجنة إلا أنه لم يخلق ليعيش ويستقر بها ، وإنما ليعمر الأرض ويكون خليفة لله فيها . « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(١) فوجود آدم فى الجنة كان مؤقتا وهبوطه إلى الأرض كان مؤكدا سواء أكل من الشجرة أم لم يكن منها ، وآدم لم يهبط من الجنة إلى الأرض لأنه أكل من الشجرة المنهى عنها وإنما أكل من الشجرة المنهى عنها ليهبط إلى الأرض المعدة له ولذريته سلفا ، والمقدر إقامتهم عليها ، وخلافتهم الله فيها ، ولذلك كان عتاب الله تعالى لآدم على أكله ومخالفته نهيه عتابا خفيفا قدم بين يديه العذر « فنسى ولم نجد له عزما »(٢) وأعقبه بالعفو والصفح وقبول التوبة « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »(٣) .

والمتأمل لحديث القرآن فى قصة آدم يجده تناول ثلاثة موضوعات رئيسة :

١ — إخبار الله ملائكته بالخلق .

٢ — أمره الملائكة بالسجود لآدم .

٣ — نهيه آدم أن يأكل من الشجرة .

إخبار وأمر ونهى . عند الإخبار تساءلت الملائكة متعجبة أو اعترضت متأدبة ، « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن

---

(١) البقرة : ٣٠.
(٢) طه : ١١٠.
(٣) البقرة : ٣٧

نسبح بحمدك ونقدس لك » وسواء أكانت فكرة الملائكة عن هـذا « الخليفة » عن علم أو توقع فإن الله لم ينف، ما قالته وإنما أخبر بأنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة « إنى أعلم ما لا تعلمون » •

ولم يعتبر الحق هذه المراجعة تعديا أو تجاوزا من الملائكة لأنه لم يعاتبهم أو يعاقبهم عليها وإنما أخبرهم بقصور علمهم عن إدراك الحكمة فى هذا الخلق • وربما يكون أمره لهم بالسجود بعد ذلك امتحانا لهم أو عقابا على اعتراضهم ومراجعتهم « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا »[٤] ومع أن الملائكة فى مراجعتها فضلت نفسها عن ذلك الخلق الذى سيجعله الله خليفة حيث وصفت هذا الأخير بأنه « يفسد فيها ويسفك الدماء » بينما وصفت نفسها بقولها : « نسبح بحمدك ونقدس لك » إلا أنها ما إن أمرت بالسجود حتى أطاعت وسجدت لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون « فسجدوا إلا إبليس » •

واختلف العلماء فى إبليس أهو من الملائكة أم لا ؟ • فمن قال إنه منهم نظر إلى الاستثناء فى الآية إذ لو لم يكن منهم لما كان للاستثناء معنى ومن أخرجه منهم ذهب الى أنه من الجن « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » وأنه مخلوق من نار « خلقتنى من نار وخلقته من طين » والملائكة مخلوقة من نور[٥] •

أيا ما يكن فقد عصى إبليس بمخالفة الأمر فلعن وطرد من الجنة : « قال اخرج منها مذموما مدحورا » ، وعصى آدم بمخالفة النهى فاجتباه ربه « فتاب عليه وهدى » ولكنه أهبط إلى الأرض • فمعصية إبليس كانت عن إصرار وتعمد وعندما سأله أو عاتبه الحق بقوله : « يا إبليس

---

(٤) البقرة : ٣٤

(٥) هناك اقوال كثيرة للعلماء فى ابليس انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة فى مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٤٢٦/١ •

مالك ألا تكون مع الساجدين » أجاب إجابة مصر على المعصية : « قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » فلعنه الله وطرده : « قال اخرج منها إنك رجيم وإن عليك اللعنـــة إلى يــوم الدين »(٦) .

أما معصية آدم فكانت عن نسيان لا عن عمد وما إن ناداه ربه هو وحواء : « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » حتى سارعا بالابتهال والاســتغفار « قالا ربنا ظلمنا أنفســنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »(٧) .

ومن هنا جاءت عداوة إبليس لآدم وذريته روى عن ثابت البنانى أنه قال بلغنا أن إبليس قال يارب خلقت آدم وجعلت بينى وبينه عداوة فسلطنى عليه وعلى ولده فقال الله جعلت صدورهم مساكن لك فقال رب زدنى فقال : لا يولد ولد لآدم إلا ولك عشرة . قال رب زدنى قال : تجرى منه مجرى الدم . قال رب زدنى . قال : فاجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد .

قال فعندها شكى آدم إبليس إلى ربه فقال : يارب إنك خلقت ابليس وجعلت بينى وبينه عداوة وبغضاء وسلطته على ذريتى وأنا لا أطيقه إلا بك فقال الله تعالى : « لا يولد لك ولد إلا وكلت به ملكان يحفظانه من قرناء السوء . قال رب زدنى . قال : الحسنة بعشر أمثالها . قال : رب زدنى . قال لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة ما لم يغرغر(٨) .

وجاء فى الحديث أن موسى قال لآدم أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم أنت الذى اصطفاك الله لرسالاته ولكلامه

---

(٦) الحجر ٣٢ — ٣٥ .
(٧) الأعراف : ٢٢ ، ٢٣ .
(٨) مفاتيح الغيب ٤٧٤/١ .

وأنزل عليك التوراه فهل تجد الله قدره على ؟ قال : نعم • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحج آدم موسى وكرر ذلك •

هذا هو آدم وذاك هو خطؤه عند المسلمين • خطأ متعلق بآدم نفسه وهو موقوت لم يلبث أن عفى عنه • أقدم عليه ناسيا بدون عزم ولما علم به تاب وأناب وقبل الله توبته •

أما النصارى فقد اعتبروا أكل آدم خطيئة — لا خطأ — وهى خطيئة لم تقتصر عليه وحده وإنما انسحب أثمها وشرها على ذريته من بعده ، فعم البشرية جميعا فالكل مخطىء بخطيئة آدم والكل آثم ، ولم يملك آدم ولا أحد من ذريته ما يكفرون به عن تلك الخطيئة وعندئذ شاء الله أن يتدارك بعفوه الإنسان المخطىء والانسانية المخطئة بأن يكون من يفتديها هو ابنه الوحيد فبعثه ليخلص الانسان وينقذه من العقوبة ورضى يسوع أن يقدم نفسه فداء فيكون الوسيط بين الله والبشر ولهذا تجسد يسوع ابن الله الوحيد الذى لا ابن له سواه وقام تجسده على اجتماع اللاهوت والناسوت فى شخصه فاجتمعت له الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية وبطبيعته الإلهية كان أهلا للتكفير وبطبيعته البشرية جرت عليه أحداث الصلب فتمت الوساطة المقبولة بين الله والبشر وانتهت القطيعة ووقعت المصالحة وردد النصارى ••• نفتخر بالله بربنا يسوع الذى نلنا به المصالحة »[٩] •

ومن آدم عليه السلام أو من أكله من الشجرة المنهى عنها يبدأ الحديث عن عيسى عليه السلام عند النصارى لأنه لم يوجد ولم يولد إلا ليكون كفارة لتلك الخطيئة التى ارتكبها آدم ولو لم يخالف آدم النهى ويأكل من الشجرة لما صلب ولما قتل بل لما وجد أصلا ولا ولد •

---

(٩) سفر رومية ، الاصحاح ٥ •

فكرة المسيح المنتظر

يشير علم مقارنة الأديان إلى أن فكرة الايمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص توجد فى كثير من الديانات، وأن هذه الفكرة كانت تشتد حين تشتد الحاجة إليه . فكان المصريون الأوائل يترجون المخلص المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وكان البابليون يؤمنون بعودة هذا المخلص إلى الأرض فترة بعد فترة ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة يبعث فى جسد إنسان وزرادشت رسول المجوسية الأكبر كان أحد هؤلاء[1] .

أما الإيمان بظهور رسول إلهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها فى التلمود والهاجادا وما إليها . فقد لقى اليهود بعد طالوت وداود وسليمان من الذل والهوان ما لقوا وتعاقبت الغزاة عليهم فما يكاد يتركهم قوم حتى يغزوهم آخرون بل إن الغزاة أنفسهم كان بعضهم ينتهب اليهود والأرض التى يعيشون عليها من البعض الآخر وكان ذلك سنة فيهم . مما جعل اليهود يعتقدون — خطأ — أن إلهة الشعوب المجاورة أرادت أن تنتقم من يهوة فأذلت شعبه كما أذل هو سلفا شعوبها ومن ثم تطلعوا — غير يائسين — إلى المسيح الذى سيكون على يديه خلاصهم مما هو فيه .

وعندما أشتد تنكيل « بختنصر » ٨٦ ق. م لهم فأحرق هيكلهم ودمر مملكتهم وقتل وسبى ونهب وغنم ألحت هذه الفكرة على أذهانهم واشتد ظهورها عندهم وكثر حديثهم عن المسيح المنتظر لأن يهوه إلههم لن يتركهم لذل الأسر والإيلام كما أنه لن يقبل أن يهدم هيكله وتسقط أورشليمه ونسج الخيال اليهودى حول هذه الفكرة الكثير من القصص والأساطير .

---

(١) العقاد : حياة المسيح ٣٥ — ٣٧ .

وعندما ظهر قورش ملك الفرس ومؤسس الامبراطورية السامانية فى فارس وناصر اليهود وفك أسرهم اعتقدوا أنه هو المسيح المخلص والتمســوا منه أن يعيدهم إلى الفرس وأن يسمح لهم ببناء الهيكل • جاء فى سفر اشعياء : « ••• هكذا يقول الرب أمسكت لقورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامـه المصراعين والأبواب لا تغلق »[٢] •

إلا أن اليهود ما لبثوا أن عادوا لما كانوا فيه من الذل والاستعمار على أيدى الرومان عندما عاد الرومان من جديد يقتلون أبنــاءهم ويستحيون نساءهم ويحصون عليهم أنفاسهم فقويت عندهم فكرة المسيح المنتظر من جديد يخلصهم من أسر الرومان ويعمل على إعادة ملكهم وتحرير أورشليم وبسط نفوذهم وتسخير البشرية لخدمتهم لأنهـم شعب الله المختار كما يزعمون •

يقول أحد الباحثين[٣] فى وصفه لحال اليهود إبان مبعث المسيح : « كان الشعور العام ينتظر ظهور المسيح من نسل داود كقائد شعبى كبير يستخدم المعجزات والخوارق للانتصار على الأعداء ، وكان البعض ينتظر من المسيح صراعا دمويا وجاءت كتابات الرؤى الرمزية تعكس هذه المشاعر والآلام لقد كتبت لتشجع قوما فى شدة الضيق والمتاعب فهى تصور لأحلامهم قضاء قريبا سريعا على الشر وسعادة ومجدا للمؤمنين » •

ولقد كثرت التكهنات والأقاويل كما تعددت الأقاصيص والأساطير بشأن هذا المسيح المخلص فبعضهم يصوره ملكا من كبار اليهـود السابقين سيقوم من قبره ليعيد لبنى اسرائيل عصرهم الذهبى وبعضهم يرفض فكرة قيام أحدهم من قبره ويراه أميرا من هذه الســلالة الشجاعة الغالبة سيقود جموعهم إلى حيث النصر والعودة إلى العصر

---

(٢) الاصحاح ٤٦ نص ١ •

(٣) فتحى عثمان : مع المسيح فى أناجيله الأربعة ٦٠ •

الذهبى وبعضهم يصوره نبيا من أنبيائهم سيجمعهم بكلمة الله وهديه إلى الحق والعدل ٠

والرأى الأرجح عندهم والأشد تأثيرا فى نفوسهم هو الذى يرى أن المسيح المخلص سوف يأتى من ذرية داود وينتصر انتصارا سريعا حاسما على الأعداء ويحرر اسرائيل ويتخذ أورشليم عاصمة لملكته ليتوحد الجمع اليهودى الشتيت على عبادة يهوه من جديد ولعل الذى دفعهم إلى اختيار داود وسليمان بالذات أن عصرهما كان العصر الذهبى لليهود وقد ذكروا أن يهوه وعد داود بأن يثبت كرسى مملكته إلى الأبد ٠ جاء فى التوراة : « ٠٠٠ والآن فهكذا تقول لعبدى داود هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى اسرائيل ٠٠٠ وقد أرحتك من جميع أعدائك والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتا متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته هو يبنى بيتا لأسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد »(٤) ٠

ولم يقتصر هذا الوعد على داود وحده بل وعد كذلك سليمان فيما جاء : « إن الرب قد تراءى لسليمان ثانية وقال ٠٠٠ وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملت حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقيم كرسى ملكك على اسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك ٠

وهكذا ندرك أن فكرة المسيح المخلص عند اليهود كانت تزداد وضوحا والحاحا وقت الشدة والمحن وكانوا ينسجون حولها من الأساطير ما يخففون به ألم الواقع المرير ٠

وكما راجت هذه الفكرة عند اليهود راجت عند كثير من الشعوب والأمم مثل قدماء المصريين والهنود وغيرهم عندما يحيكون حول

---

(٤) صموئيل الثانى : اصحاح ٧ فقرات ٨ — ١٣ ٠

بعض قادتهم ومفكريهم من الأساطير ما يجعل منهم أشخاصا غير عاديين يحولون ذلهم عزا وضيقهم فرجا •

وفى هذا المجال يستوى المسيح والمهدى والامام المنتظر وليس من باب الصدفة أن ينتظر الشيعة رجوع الامام المستتر حين أوصدت فى وجوههم أبواب السلطة •

وهكذا مثلت فكرة المسيح سلوكا تعويضيا عن واقع غير مرضى وتشكلت بحسب المناخ الثقافى الذى برزت فيه •

وقد تلقب بالمسيح المنتظر من بنى اسرائيل كثيرون منهم :

هارون عليـــه الســـلام :

إذ تبين التوراة أنه بعد أن تم صنع الزيت المقدس أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يمسح به الهيكل والمذبح ليكونا مقدسين وأن يمسح به أخاه هارون ليكون مسيحا مقدسا • وكلم الرب موسى قائلا : « ••• وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم ليكهنوا لى »(٥) •

واليشـــــــع :

إذ تذكر التوراة أن الله تعالى أمر نبيه إيليـــا أن يمسح من بعده اليشـــع نبيا على بنى اسرائيل ••• « وامسح اليشع بن شافاط ••• نبيا عوضا عنك »(٦) •

وشاول أو طالوت :

وهو مســـيح الرب الذى خلص بنى اسرائيـــل من أيـــدى الفلسطينيين وهو المسيح المبارك الذى لا تناله الأيدى بالسوء ولا تمتد اليه بالشـــر •

---

(٥) سفر الخروج : الاصحاح ٣٠ الفقرة ٣٠ •

(٦) سفر الملوك : الاصحاح ١٩ الفقرة ٢٠ •

وداود وسليمان عليهما السـلام (٧) .

وحين عاد الرومان ثانية لإحكام قبضتهم على الشعب الاسرائيلى واستعبدوهم وألحقوا بهم ألوانا من الذل والهوان تجدد تطلعهم مرة أخرى إلى مخلص(٨) وسيكون هذه المرة عيسى بن مريم الذى صار هذا اللقب علما عليه .

---

(٧) سفر الملوك : الاصحاح الأول ٢٢ — ٢٤ .

(٨) من هنا يتضح أن فكرة المسيح قد انتقلت من مسح الكهنـة والملوك والانبياء بالزيت المقدس الى التطلع فى وقت الأزمات والملمات الى المخلص الذى يقوم بتحرير الشعب الاسرائيلى ويفك أسره .

بيئـة المسـيح عليه السـلام

ولد عيسى بهوديا ولم يعرف خلال حياته القصيرة غير البيئـة اليهودية فاستمد منها وحدها عناصر ثقافته وخضـع كسائر مواطنيه إلى المؤثرات التى عملت فيها وكانت فلسطين خاضعة للسيادة الرومانية منذ أن استولت روما على أورشليم القدس سنة ٣ ق. م •

وكان الشعب اليهودى فى عهد عيسى يبدو بمظهر الشعب المتحد فى الجنس والدين والتقاليد إلا أن هذه الوحدة تخفى قدرا لا بأس به من التنوع فكانت فى أعلى السلم الاجتماعى طبقة من رجال الدين حول الهيكل تعمل على انتظام العبادة فى هذا المعبد الأعظم وتشرف على تقديم الذبائح ولكنها لا تعتنى بدراسة الشريعة أو تعليمها بل توجه كل اهتمامها الى حفظ النصوص وممارسة الطقوس •

وإلى جانب هؤلاء طبقة الكتبة وهم فقهاء الشرع ينكبون على شرح الكتاب المقدس ويعنون بكثير من المسائل الشكلية التى من شأنها الابتعاد بالايمان عن صيغته الفطرية رغم تقواهم الشخصية العميقة وقد شهد المجتمع اليهودى فى هذه الفترة انتشار العديد من الفرق الدينية السياسية • فكان الصدوقيون من الأثرياء وأصحاب الجاه لا يعترفون إلا بنص الشريعة المدون فى التوراة ويرفضون أى بدعة فى الدين قائمة على الاستدلال والاجتهاد ، لا يؤمنون ببعث الأجساد محتجين فى ذلك بأن موسى والأنبياء القدامى لم ينصوا عليه وكان حزبهم من أشد المناوئين لحركة عيسى •

وفى الجانب المقابل كان الفريسيون[1] ينتمون إلى الطبقـات الشعبية ويحظون لديها بنفوذ وتقدير ، وكانت لهم ثلاث سـمات تميزوا بهـا •

---

(١) الفريسيون : تعنى المفضلون وان كانوا يطلقون على انفسهم لفظ الأصحاب ويطلق عليهم انجيل الطفولة لقب المعتزلة •

أولهـا : عدم اقتصارهم على نص الشريعة المدون واعتبارهم للسنن الدينية الشفوية .

وثانيهـا : حرصهم الشديد على الطهارة الشرعية .

وثالثهـا : اعتقادهم الراسخ فى البعث الجسمانى ، والجدير بالذكر أن حواريى عيسى الاثنى عشر كانوا — فيما يبدو — من الفريسيين .

ويمثل الاسينيون ثالث فرقة يهودية كبرى وكتب العهد الجديد لا تحتوى على أى إشارة إليهم . وأبرز ما يتميزون به علاوة على اهتمامهم النشط بالانتاج الأدبى أنهم كانوا نساكا وكهنة يمارسون حياة الرهبنة الجماعية وينزعون إلى الطهارة الشرعية فيكثرون من التردد على الحمامات وكانوا يؤمنون — مثلهم فى هذا مثل الفريسيين — بقرب نهاية الأزمنة وبحلول عالم جديد مثالى فى ذلك العهد المرتقب إلا أنهم لم يكونوا على صلة بكهنوت أورشليم الرسمى .

وكانت منطقة فلسطين الوسطى بعيدة عن روح الوحدة الدينية وكان أهلها المعروفون باسم السامريين نسبة الى السامرة أشهر مدنهم لا يعترفون إلا بالكتب الخمسة الأولى من العهد القديم باعتبارها موسوية فكانوا مقاطعين لهياكل أورشليم وكان بينهم وبين اليهـود احتقار متبادل وعداوة راسخة حتى إن الحجيج القادمين من الجليل والقاصدين أورشليم كثيرا ما يتحاشون المرور بالسامرة خوفا من شر أهلها . ولم يمنع ذلك من انتشار ظاهرة انتظار المخلص فى أوساط السامريين[٢] .

أما المناطق المجاورة لنهر الأردن فكانت تسكنها مجموعات لها قرابة باليهـود دون أن تنتمى إلى بنى اسرائيل ونشأت بها فرق الصائبة

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٥٨/١ وتفسير الطبرى ١٥٧/٣ .
(٢) مفاتيح الغيب ٧٩٠/٥ .

والمندائيين التى كانت تتميز بممارسة التغطيس فى نهر الأردن الذى كان يعتبر عندهم مقدسا[٣] •

وإطلاق صفة الناصرى Nazoraios Nazareen على عيسى وعلى تلاميذه لعلها لا تدل على النسبة إلى الناصرة كما يتبادر إلى الذهن ولكن تعنى الناظر وهى أقدم تسمية للمندائيين ، ولعل هذا الالتباس راجع إلى أن يحيى (يوحنا المعمدان) أولا والمسيحيين من بعده قد مارسوا على غرار هذه الفرق التغطيس والتعميد فى نهر الأردن • وأيا ما يكن فالعلاقات موجودة بين هذه الجماعات وبين المسيحيين الأولين وإن كان يعسر تحديدها •

وكان اليهود فى معظم الوقت إما فى قتال مع حكام البلاد المجاورة وإما تحت وطأة قوة من القوى المستعمرة وإما غرباء حيث يأخذون سبايا وينقلون قسرا إلى حيث يريد المستعمر وإما تائهين فى الأرض • وقد وقع اليأس ببعض اليهود فى المهجر إلى التخـلى عن ديانتهم الأصلية كما أن معظمهم كانوا يعيشون فى جماعات شبه مغلقة على نفسها وقد دعم هذا ظاهرة اهتمت بها العقلية اليهودية ورسخت فى أذهان بنى اسرائيل وانتشرت على نطاق واسع فى زمن عيسى وهى انتظار مجىء المسيح الموعود • وكان الشعب والعديد من رجال الدين يأملون من مجيئه استرجاع أمة اسرائيل لما عرفته من مجد أيام داود ومن الطبيعى أن يقوى هذا الأمل كلما كانت الأحداث التاريخية معاكسة للتصور الذى يفرضه مصير شعب الله المختار •

فالمسيح الموعود هو الذى سيخلصهم وسيجلس لا محالة على كرسى أبيه داود وسينتقم لهم من أعدائهم • وبازاء المفهوم الشعبى لدور المسيح ظهر مفهوم آخر اعتقد اليهود بمقتضاه أن المســـيح سيخضع الأرض كلها لعبادة الإله الواحد وسيحقق الشعب اليهودى

---

(٣) انجيل متى : الاصحاح الثانى ١٣ — ٢١ •

بفضله ملكوت السموات على جميع الكائنات[٤] .

وكان اليهود ينتظرون عودة هذا النبى بعودة موسى أو نبى يشبهه وقد يكون إيليـــا أو أخنوخ الأن كليهما لم يمت حسب العهد القديم ولكن رفع إلى السماء . وهكذا يتلاقى فى شخص عيسى مفهوم النبى المنتظر ومفهوم المسيح الموعود الذى سيحقق للديانة اليهودية الصيغة الكونية باعتبار أن الأمم مدعوون إلى الالتحاق يوما ما بالشـــعب المختار وعبادة إله إبراهيم .

وأخيرا فإن العوامل المتواجدة فى فلسطين فى بداية التـــاريخ المسيحى كانت تتآزر كلها لتضفى على عيسى صفات معينـــة تتجاوز شخصه وتعاليمه الحقيقية إلى ما ينتظر منه وما تحتاج إليه العقلية الرائجة فى عصره .

(4) Rougier, La genése des dogmes, pp. 23 — 28.

مــريم ابنــة عمـــران

لم يذكر القرآن الكريم امرأة وسماها باسمها إلا مريم ابنــة عمران ذكرت فى نحو ثلاثين موضعا منه •

ويرفع ابن كثير نسبها إلى إبراهيم عليه السلام بينما يقف به الطبرى عند داود عليه السلام[1] • كانت أمها امرأة عمران تدعى حنة وكانت عاقرا لا تلد فدعت ربها أن يهبها ولدا فحملت بمريم وهلك عمران فلما عرفت بحملها جعلته لله محررا خادما للمسجد خالصــا للعبادة : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » فلما وضعتها ووجدتها أنثى والأنثى لا تصلح لخدمة المسجد ولا للعبادة اعتذرت إلى الله قائلة : « إنى وضعتها أنثى » وإنى سميتها مريم — ومريم تعنى العابدة — وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم •

عن سعيد بن المسيب قال : قال أبو هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من بنى آدم إلا يمســه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان غير مريم وابنها •

فتقبلها ربها بقبول حسن بأن جعل الناس يتنافسون ويتنازعون على تربيتها وكفالتها حتى قال زكريا أنا أحق بها عندى خالتها فقالوا : لا حتى تقترع عليها فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم التى كانوا يكتبون الوحى فيها على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح فارتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فعلوا ذلك ثلاث مرات وفى كل مرة يرتفع قلم زكريا فأخذها « وكفلها زكريا » ومما يقال عن مريم : أنهــا تكلمت فى صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثديا قط وان رزقها كان يأتيها من الجنة •

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٥٨/١ وتفسير القرطبى ١٥٧/٣

واختلف فى كفالة زكريا هل كانت فى طفولتها أم بعد أن فطمت لقوله تعالى : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » مما يدل على أنها قد فارقت الرضاع ورد بأنه يمكن أن يكون ذلك فى آخر زمان الكفالة • وعندما صارت شابة بنى لها زكريا غرفة فى المسجد جعل بابها فى وسطه • واصطفاها الله • اصطفاها مرتين مرة بتحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل هذا لغيرها من النساء ومرة بأن وهب لها عيسى من غير أب وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها وجعلها وابنها آية للعالمين • قال صلى الله عليه وسلم : حسبك من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة عليهن السلام •

وطهرها من الكفر والمعصية وعن مسيس الرجال وقيل عن الحيض أيضا لأنها كانت لا تحيض « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » •

ويقتحم الملك على مريم خلوتها فترتاع وتنفر وتتوسل : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا فيهدىء من روعها ويخبرها بحقيقة أمره وأنه مرسل من ربه فى مهمة كريمة جليلة « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » ولكن مريم لا تكاد تصدق فتراجعه متسائلة : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ويجيب الملك بأن ذلك على الله هين » • قال كذلك قال ربك هو على هين •

وتحمل البتول بعد النفخ • « فنفخنا فيها من روحنا » وتذكر التفاسير أن امرأة زكريا جاءت تزورها فالتزمتها فعلمت أنها حبلى • ذكرت مريم حالها فقالت امرأة زكريا إنى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى فى يحيى « مصدقا بكلمة من الله » ومما ترويه التفاسير أيضا أن يوسف النجار قال لمريم : وقع نفسى من أمرك شىء فقالت قل قولا جميلا • قال : أخبرينى هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر ، قالت :

نعم • ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذى أنبته من غير بذر • ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء • فقال يوسف · لا أقول هذا ولكنى أقول : إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون • فقالت له مريم ، أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعندئذ زالت التهمة عن قلبه[٢] •

وروى عن ابن عباس أن مدة حملها كانت تسعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عبس وقيل سبعة وقيل ستة وقتل ثلاث ساعات وقيل بل ساعة واحدة بدليل قوله تعالى : فحملته فانتبذت به •• فأجاءها المخاض •• فناداها من تحتها • والفاء للتعقيب • ومدة الحمل تعقل فيمن يتولد من نطفة •

وقيل لما دنا مخاضها أوصى الله إليها أن اخرجى من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له فلما أدركها النفاس ألجأها إلى أصل نخلة فوضعت عندها وأنستها كربة الغربة وما سمعته من الناس بشارة الملائكة بعيسى فقالت : « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وهذا من كلام الصالحين • روى عن أبى بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر ترتفع على الشجرة وتأكل من الثمر وددت أنى ثمرة ينقرها الطائر وعن عمر أنة أخذ نبتة من الأرض وقال ليتنى هذه النبتة ليتنى لم أك شيئا ، وقال على يوم الجمل : يا ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، وعن بلال : ليت بلال لم تلده أمه •

وعندئذ يناديها من تحتها : ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » فتطمئن نفسها وتهدأ وتأكل وتشرب وتقر عينا « وهزى إليك بجذع

---

(٢) مفاتيح الغيب ٥/٧٩٠

النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا » . وتطالب بألا تكلم أحدا بشأن مولودها وأن تقول : « إني نذرت للرحمن صوما » ولذلك عندما جاءت قومها تحمله وسألوها عن مولودها واستبعدوا وهي أخت هارون الطاهرة البتول أن تكون قد فعلت خطأ أو ارتكبت إثما فأشارت إلى رضيعها فأخبرهم بحقيقته . قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي . كلمهم بذلك ولم يتكلم بعدها حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان .

وتروي الأناجيل أن يوسف النجار وهو شاب صالح من شبان اليهود وكانت مريم مخطوبة له قبل أن تحمل بالمسيح[٤] ظهر له الملاك وأمره بأن يأخذ مريم وابنها ويهرب إلى مصر لأن هيرودوس يطلب الصبي ليهلك . « وبعد ما انصرفوا إذ ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخذ الصبي وأمه وأهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودوس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودوس فلما مات هيرودوس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلا قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي فقام وأخذ الصبي وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل[٥] .

ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين »[٦] أن الربوة هي مصر أو

---

(٣) انجيل متى الاصحاح الثاني ١٣ — ٢١

(٤) انظر : عبد الوهاب النجار ، قصص الانبياء ٣٧٣ ، دار احياء التراث العربي .

(٥) انجيل متى : الاصحاح الثاني ١٣ — ٢١ .

(٦) المؤمنون : ٥٠ .

الاسكندرية أو قرية من قرى مصر[٧] • ولنا أن نتصور مدى المشقة والمعاناة فى تلك الرحلة وفى تربية مريم لابنها وخوفها عليه من القتل • جاء فى إنجيل متى : « ولما ولد يسوع فى بيت لحم فى أيام هيرودوس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم حينئذ دعا هيرودوس المجوس وتحقق منهم زمان النجم الذى ظهر ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضا وأسجد له ••• ورأوا الصبى مع مريم أمه فخروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ولبانا ومرائم إذ أوصى إليهم فى حلم ألا يرجعوا إلى هيرودوس انصرفوا فى طريق آخر الى كورتهم[٨] •

وحيث غادر المجوس إلى بلادهم دون العودة إلى هيرودوس حيث كان يريد أن يعلم منهم مكان هذا الغلام ليقتله أمر بقتل جميع الصبيان فى بيت لحم وفى ضواحيها أبناء سنتين فما دون ليضمن بذلك التخلص من هذا العدو الصغير الخطير •

وتذكر الأناجيل عن مريم أنها تزوجت من يوسف النجار بعد ذلك وأنجبت منه فيما ينقله القاضى عبد الجبار : « وفى أناجيلهم وأخبارهم أنه لما صلب جاءته أمه مريم ومعها أولادها يعقوب وشمعون ويهوذا فوقفوا حذاء فقال لها وهو على الخشبة : خذى أولادك وانصرفى فهؤلاء كانوا إخوة المسيح من أمه !![٩] وجاء فى انجيل متى : أنه كان يعلم الناس فى وطنه فبهرهم بحكمته حتى قالوا أليس هذا ابن النجار أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوس وسمعان ويهوذا أو ليست أخواته جميعهن عندنا[١٠] • وفى يوحنا : وكان عيد اليهود عيد المظال

---

(٧) الجامع لاحكام القرآن ١٢/١٢٧ •

(٨) انجيل متى : الاصحاح الثانى ١ — ١٢ •

(٩) تثبيت دلائل النبوة ١٤٣ •

(١٠) الاصحاح ١٣/٥٥ ، ٥٦ •

قريبا فقال اخوته انتقل من هنا واذهب الى اليهودية لكى يرى تلاميذك أيضا أعمالك الأن إخوته أيضا لم يكونوا يؤمنون به . ولما كان إخوته قد صعدوا ... صعد هو لا ظاهرا بل كان فى الخفاء[11] .

وأخرج الطبرانى عن سعيد بن جنادة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله زوجنى فى الجنة مريم ابنة عمران وامرأة فرعون وأخت موسى وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لخديجة وهى تجود بنفسها : أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله فى الكره خيرا فإذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن منى السلام مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة أو قال حكيمة بنت عمران أخت موسى بن عمران فقالت بالرفاء والبنين يا رسول الله[12] .

---

(١١) الاصحاح ٧/٣—١٠ .

(١٢) تفسير القرطبى ١٨/٢٠٤ .

عيسى فى القـــــرآن الكريم

الحديث عن الشرائع والأديان[1] من الموضوعات الرئيسة فى القرآن تناوله أكثر مما تناول غيره من موضوعات • ففى حديثه عن الأنبياء السابقين ودعوتهم لقومهم ، وفى حديثه عما يجب الإيمان به من عقائد وما يجب القيام به من عبادات عرض للشرائع والأديان مبينا أهم أسسها وأركانها بمنهج يختلف عن مناهج المتكلمين والفلاسفة ولا يقف عند السرد والقص شأن المؤرخين وكتاب السير منهج خاص نستطيع أن نقول عنه إنه منهج قرآنى فريد •

ولنكتف هنا بالوقوف عند عيسى عليه السلام وشريعته وما جاء فى القرآن عن ذلك •

وإذا كان الاسلام دينا يقوم أساسا على مفهوم علاقة الانسان بالله ، واليهودية دين خاص بشعب معين فإن المسيحية هى من بين الديانات السماوية الثلاث الوحيدة التى تقوم — فى نظر أهلها — على الإيمان بشخص محورى هو عيسى المسيح • لذا فإن أى دراســة للمسيحية ينبغى أن تنطلق من حياة عيسى عليه السلام •

وعيسى فى نظر القرآن نبى مرسل من أنبياء بنى إسرائيل جاء ليقيم التوراة وليصحح ما اعوج منها • كان يأخذ على أحبار اليهود جحودهم وتحجر العقيدة فى قلوبهم ونفاقهم وعملهم بغير ما يقولون •

يقرر القرآن أنه أوحى إليه كتاب كما أوحى إلى موسى والى محمد وهذا الكتاب هو الانجيل •

---

(١) كلمة دين وردت فى القرآن الكريم قرابة تسعين مرة مفردة ولم ترد جمعا اطلاقا مما يدل على أن الدين عند الله واحد هو الاسلام « ان الدين عند الله الاسلام » أما الشرائع فقد تختلف : « لــكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (المائدة ٤٨) •

وحديث القرآن عن عيسى وجيز لم يتناول حياته بالتفصيل وإنما أشار بإيجاز الى مبتدئها ومنتهاها ، وما بين ذلك لم يتحدث عنه إلا إشارات موجزة أوجز بكثير مما تحدث به عن بعض الأنبياء الآخرين مثل موسى وإبراهيم •

مجمل حديث القرآن كان عن مجيئه من غير أب وتأييده بالبينات إلى جانب ذكر الحواريين ودعوة الله لهم أن يؤمنوا بعيسى عليه السلام ودعوة عيسى لهم أن يكونوا أنصاره ، وكانوا أثنى عشر منهم يهوذا الأسخريوطى الذى وشى به وكان معظمهم صيادين وكان منهم عشارون والجميع ليسوا على حظ من التعليم لهذا لم تحفظ أقوال المسيح ولم تكتب ثم حديثه عن الصلب والقتل والرفع •

فمن حيث الخلق من غير أب نجد القرآن يقربه إلى الأذهان بالتذكير بخلق آدم من غير أب أو أم فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب أو أم فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب أولى • يقول الفخر الرازى « وحدوث عيسى من غير أب غير ممتنع ولو أنك طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفة على إقامة حجة إقناعية فى امتناع حدوث الولد من غير الأب لم يجدوا إليه سبيلا إلا الرجوع إلى استقراء العرف والعادة ، وقد اتفق علماء الفلاسفة على أن مثل هذا الاستقراء لا يفيد الظن القوى فضلا عن العلم »[٢] • قال تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قالله كن فيكون » •

وعندما بشرت الملائكة مريم بعيسى نعتته بما حكاه القرآن : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » ووجاهته فى الدنيا راجعة إلى نبوته وما كان يظهر على يديه من آيات مثل استجابة الدعاء وإحياء الموتى وإبراء الاكمه

---

(٢) مفاتيح الغيب ٦٨٤/٢

والأبرص ووجاهته فى الآخرة لما له من منزلة عند ربه ، ومن المقربين أى فى أعلى درجات الجنة « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

وتحدث القرآن عن كلامه فى المهد فى موضعين أو ثلاثة :[٣] فى سورة آل عمران[٤] « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » وبتفصيل أكثر فى سورة مريم[٥] . « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

ذكر الطبرى أن اليهود غضبوا عندما أشارت مريم إلى عيسى وقالوا لسخريتها منا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها[٦] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض المصادر اليهودية تنسب إلى موسى الكلام فى المهد . « أخذ الرضيع فى المشى فخطا سبع خطوات إلى الامام وسبع خطوات إلى الخلف، وتكلم كما يتكلم الكهل ثم ذهب لينام فى مهده بكل تعقل[٧] .

وقد نعت هذا النص بأنه أسطورة يهودية .

---

(٣) الاختلاف راجع الى الاختلاف فى قوله تعالى : « فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر احدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا » فقد اختلف العلماء فيه حول ما اذا كان المنادى هو عيسى عليه السلام وهو الأرجح أم جبريل .

(٤) آية ٤٦

(٥) آية ٢٩ — ٣٢

(٦) تفسير الطبرى ٧٩/١٦

(٧) Margse Choisy Moise p. 41.

ورغم نص انجيل الطفولة[٨] العربى على أن عيسى تكلم فى المهد صبيا وحين كانت له سنة واحدة قال لأمه : يا مريم أنا يشوع ابن الله الذى ولدتنى كما بشرك جبريل الملك وإنه أرسلنى لخـــلاص العالم • رغم هذا النص فإن الكنيسة بمختلف فروعها لم تكن تعترف بهذه المعجزة ، ولذا كان النصارى ينكرون على القرآن إتيانه بما لا يعرفونه عن المسيح إذ لو كان تكلم فى المهد لكانوا أول من ســـجل حدثا فى مثل هذه الأهمية •

وربما كان للحديث الذى رواه البخارى والذى ينزع عن عيسى الاختصاص بالكلام فى المهد ويجعله ثالث ثلاثة [الاثنان الأخران هما : غلام جريج وطفل رضيع من بنى اسرائيل][٩] وما روى عن ابن عباس من أنه تكلم أربعة فى المهد وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم[١٠] •

ربما كان لايراد هذه الأحاديث رد على النصارى بحيث كانت مشاركة شخصين أو ثلاثة لعيسى فى تلك المعجزة تحد من غرابتها •

ومهما كان الأمر فإن ثلاثة من أصحاب الردود على النصارى وثلاثتهم من المعتــزلة [أبو هاشم الجبــائى والجاحظ والقــاضى عبد الجبار] شغلتهم هذه المسألة فردوا عليها بما فيه الكفاية[١١] • ومما قاله الجبائى فى ذلك أن كلام عيسى فى المهد يجوز أن يكون منقولا للنصارى وغـــيرهم من حيث لم يظهر عند الجمع العظيم كظهــور غيره[١٢] •

---

(٨) ص ٤٦

(٩) راجع صحيح البخارى ٣/١٧٩ ، المقدسى : البدء والتــاريخ ٣/١٣٤ — ١٣٦ والتوحيدى : الامتاع والمؤانسة ٢/٩٧

(١٠) تفسير الطبرى ١٢/١٩٣

(١١) انظر : المغنى ١٥/٢١٦ ورد الجاحظ ١٢ ، ١٣

(١٢) المغنى ١٥/٢١٦

وعن آيات عيسى وبيناته يقول القرآن : « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الاكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »[١٣] .

يروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات أخذ بنو إسرائيل يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش »[١٤] فأخذ طينا وصوره ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ولم يخلق غير الخفاش وقيل بل خلق أنواعا من الطير[١٥] . وقد ذكر عيسى أن ذلك بإذن الله أى أن التصوير منه أما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل .

وفى إبراء الأكمة والأبرص روى أنه عليه السلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفا من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام وما كانت مداواته إلا بالدعاء .

كما أحيا الموتى بإذن الله أحيا عاذرا وكان صديقا له ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حيا ومر على ابن ميت لعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حيا ورجع إلى أهله وبقى وولد له . وقوله بإذن الله لرفع توهم من اعتقد الألوهية .

وأما اخباره عن الغيوب فقد روى السدى أنه كان يلعب مع الصبيان ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم وكان يخبر الصبى بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبى إلى أهله يبكى إلى أن يأخذ ذلك

---

(١٣) آل عمران : ٤٩

(١٤) مما ذكروه فى خصوصية طلبهم خلق خفاش دون غيره انه حيوان يطير من غير ريش له ثدى واسنان واذن ويحيض ويطهر ويلد ويضحك كما يضحك الانسان : تفسير القرطبى ٤/٩٤ .

(١٥) مفاتيح الغيب ٢/٦٨٠

الشىء ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع ذلك الساحر وحجبوهم فى بيت فجاء عيسى عليه السلام لطلبهم فقالوا له ليسوا فى البيت فقال فمن فى هذا البيت قالوا خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير •

والخلاف مع النصارى ليس فى إتيان عيسى بخوارق العادات بل فى تأويلها واستغلالها فى نطاق منظومة لاهوتية معينة تؤدى إلى تأليهه • كما أنهم لم يتحرجوا من رواية معجزات أخرى وردت فى الأناجيل أو نسجها الخيال الشعبى مثل المشى على الماء كما يمشى على البر مما أعطاه الله تعالى من اليقين والاخلاص[١٦] • ومثل قلبه الماء الذى فى القدور لحما ومرقا وخبزا وإحياءه شاة بعد ذبحها وشيها وأكلها دون كسر عظامها بقذف العظام فى الجلد ثم ضربها بعصاة وقوله لها : قومى بإذن الله[١٧] •

وعن شريعته جاء القرآن فيها بقوله : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[١٨] •

فمن جملة الأغراض فى بعثة عيسى عليه السلام الى بنى اسرائيل تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين ثم للتخفيف عنهم بأن يحل لهم بعض الذى حرم عليهم بفعل بعض الأحبار الذين وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان فى زمن موسى •

كما أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة

---

(١٦) انجيل متى ٢٢/١٤ — ٣٧ ، انجيل مرقس ٤٥/٦ — ٥٢ ، انجيل يوحنا ١٦/٦ — ٢١

(١٧) السابق •

(١٨) آل عمران : آية ٥٠ ، ٥١

لهم على بعض ما صدر عنهم من الخيانات قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »[١٩] فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم .

وكان يحيى هو أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدقه وهو الذى حكى عنه القرآن قوله « مصدقا بكلمة من الله » يعنى بالكلمة عيسى عليه السلام . وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين وقيل بستة أشهر وكانا ابنى خالة .

وعن رسالته والدعوة إليها وكفر اليهود به واستجابة الحواريين له يقول الحق : « فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »[٢٠] .

قال السدى : إن الله لما بعث عيسى رسولا إلى بنى اسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم وكان أمر عيسى عليه السلام فى قومه كأمر محمد صلى الله عليه وسلم وهو بمكة مستضعفا وكان يختفى من بنى اسرائيل كما اختفى صلى الله عليه وسلم فى الغار وفى منازل من آمن به لما أرادوا قتله .

ومما ينقله المفسرون مما أخذوه من أهل الكتاب أن عيسى لما فر من بنى اسرائيل أخذ يسبح فى الأرض فمر بجماعة من صيادى السمك

---

(١٩) النساء : ١٦٠.

(٢٠) آل عمران آية ٥٢ ، وقد ذكر لفظ الحواريين فى القرآن خمس مرات فى آل عمران والمائدة والصف وذكر العلماء لهذا اللفظ وجوها : منها أنه اسم موضوع لخاصة الرجل وخالصته ومنه يقال للدقيق حوارى لأنه هو الخالص منه وقال صلى الله عليه وسلم للزبير : انه ابن عمتى وحواريى من أمتى والحواريات من النساء النقيات الالوان والجلود ، والحواريون صفوة الأنبياء الذين خلصوا واخلصوا فى التصديق بهم وفى نصرتهم وقيل الحوارى من الحور وهو شدة البياض والحور نقاء بياض العين وحورت الثياب بيضتها . قال سعيد بن جبير : سموا حواريين لبياض ثيابهم وقيل كانوا قصارين يبيضون الثياب وقيل سموا بذلك لأن قلوبهم كانت نقية .

كان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زبيدى وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر فقال عيسى عليه السلام الآن تصيد السمك فإن تبعتنى صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فى الماء فما اصطاد شيئا فأمره عيسى بالقاء شبكته فى الماء مرة أخرى فاجتمع فى تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملأوا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام .

وكان الحواريون اثنتى عشر رجلا اتبعوا عيسى عليه السلام . وكانوا اذا جاعوا قالوا يا روح الله جعنا فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج لكل واحد رغيفان وإذا عطشوا قالوا يا روح الله عطشنا فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج الماء فيشربون . فقالوا من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا سقيتنا وقد آمنا بك فقال أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالكراء فسموا حواريين[٢١] .

وثم حديث آخر للقرآن عن عيسى مع الحواريين فى شأن المائدة فى قوله تعالى : « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا **لا أعذبه أحدا من العالمين**[٢٢] .

وقيل إن ذلك لم يصدر من الحواريين وإنما من جماعة كانوا مع الحواريين كما قال بعض جهال العرب للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل

---

(٢١) مفاتيح الغيب ٢/٦٨٦

(٢٢) المائدة • آية ١١٠ — ١١٥

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط[٢٣] • وكما قال من قال من قوم موسى : « اجعل لنا إلها كما لهم الهة »[٢٤] •

ونشير أخيرا فى نطاق جمع المعلومات المتوفرة عن شخص عيسى عليه السلام فى المصادر الاسلامية إلى أمرين حظيا ببعض العناية • وهما صفته الخلقية وسنه وزمنه • فنعلم من عدد من الأحاديث ومن حديث الإسراء أن عيسى كان رجلا مربوع الخلق يضرب إلى الحمرة والبياض بين القصير والطويل • آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر أو سبطه كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس[٢٥] — كأن رأسه تتطر ماء وما به ماء أشبه من يكون بعروة بن مسعود الثقفى[٢٦] •

واختلف فى سنه وفى تحديد زمن حياته فهو قد عاش اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر عند بعضهم وثلاثا وثلاثين سنة عند آخرين[٢٧] • بينما بلغ من العمر مائة وعشرين عاما فى رأى ثالث بناء على أن النبى مات فى الستين وقال فى العام الذى مات فيه ليس من نبى إلا عمر نصف عمر الذى كان قبله وإن عيسى أخى كان عمره عشرين ومائة سنة[٢٨] • ورأى آخر يفيد أنه بعث لأربعين ومكث فى قومه أربعين عاما[٢٩] • أى أنه بعث فى نفس السن — المعيار — الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم •

---

(٢٣) ذات انواط شجرة كانت تعبد فى الجاهلية • قال ابن الأثير : كان المشركون ينوطون بها سلاحهم اى يعلقونه بها ويعكفون حولها •

(٢٤) الأعراف : ١٣٨

(٢٥) ديماس : الحمام •

(٢٦) صحيح البخارى ١٨٦/٤ ، ٢٢ ، ٢٠٣ وتفسير الطبرى ١٥/٥ ، ١٥/٦

(٢٧) طبقات ابن سعد ٥٣/١ ، تفسير الطبرى ٢٧٨/٣

(٢٨) تفسير الطبرى ٢٦٤/٣

(٢٩) طبقات ابن سعد ٣٠٨/١ ، تاريخ الطبرى ٢٩١/٢

والملاحظ أن هذا الآراء تتأرجح بين أخذ المعطيات المروية عن النصارى بعين الاعتبار وبين التنظير بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم تنظيرا يؤدى إلى نتائج لا صلة لها بالواقع التاريخى .

وكان هذا الاختلاف مرتبطا بتحديد « الفترة من الرســل » أى المدة التى تفصل عيسى عن محمد عليهما السلام وهى نحو ألف سنة فى أقصى التقديرات[٣٠] وأربعمائة ســنة فى أدناها[٣١] مرورا بتقديرات أخرى [٦٠٠ — ٥٦٩ — ٥٦٠ — ٥٥١ — ٥٤٠ — ٥٠٠ وأربعمائة وبضع وثلاثون][٣٢] وقد يكون أحد أسباب الفروق بين هذه التقديرات عدم الاعتناء بذكر بداية هذه الفترة . هل هى ولادة عيسى أم بعثته أم رفعه وكذلك نهايتها أهى ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم أم بعثته أم هجرته أم وفاته .

ويتحدث القرآن أيضا عن القتل والصلب والرفع قال تعالى : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى »[٣٣] وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد اختلفوا فى التوفى والرفع وهل المقصود بالتوفى الموت أم تمام مدة بقائه على الأرض ؟ وهل فى الآية تقديم وتأخير أم لا ؟ كما اختلفوا فى المقصود من الرفع . هل هو رفع الجسد أم رفع المكانة كما فى قوله تعالى عن إدريس عليه السلام : « ورفعناه مكانا عليا »[٣٤] .

---

(٣٠) تثبيت دلائل النبوة ص ١٠٩

(٣١) المقدسى : البدء والتاريخ ١٢٦/٧

(٣٢) وردت هذه التقديرات على التوالى : صحيح البخارى ٩٠/٥ ، البدء والتاريخ ١٢٦/٣ ، طبقات ابن سعد ٥٣/١ ، تاريخ الطبرى ٢٣٥/٢ ، ٢٣٨ ، تفسير الطبرى ١٦٧/٦ ، البدء والتاريخ ١٣٦/٣ ، تفسير الطبرى ١٦٧/٦ .

(٣٣) آل عمران : ٥٥

(٣٤) مريم : ٥٧

أما القتل والصلب فلا خلاف حولهما ، وأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما صرحت بذلك الآيات ونصت وإنما ألقى شبهة على غيره .

وليس فيما ذكره القرآن الكريم عن حياة عيسى ومعجزاته وحوارييه كبير اختلاف عما ذكرته أناجيل النصارى وكتبهم ، وإنما يظهر الخلاف واضحا وجليا فى كلامه فى المهد وفى الصلب والقتل والرفع إلى جانب الخلاف الجوهرى وهل هو الكلمة أو بالكلمة كان .

وهذا ما سيتضح فى تناولنا المسيح عند النصارى .

المسـيحية فى القرآن الكريم(*)

القــرآن هو المصدر الأهم المواثق التى تبنــاها المســلمون من المسيحية والمسيحيين كما هو الشأن بالنسبة إلى قضايا الفــكر الاسلامى عامة ، ولكن اعتبار النص القرآنى لا يعنى بالضرورة الاتفاق على تأويله فالمسلمون وإن اتفقوا على نص القرآن فقد اختلفوا فى تأويله ، ولذا لم يعدم التفسير أمثلة من الاختلاف تبلغ حد التناقض أحيانا وتدعى كلها رغم ذلك الوفاء للقرآن •

ثم إن طبيعة ترتيب الآيات القرآنية وطريقة العرض الفــنى للموضوعات تبعد به عن مناهج الأنظمــة الكلامية والفلســفية فى الاستدلال والاستنباط وبناء النتائج على المقدمات وما إلى ذلك من الطرق المعهودة فى الاقناع والاستدلال • فلا غرابة أن يستوجب تناول النص القرآنى قدرا كبيرا من الحــذر لكل من يرغب فى استكشاف أسراره وأبعاده متجنبا قدر الامكان إسقاط الآراء المسبقة عليه وعزل بعض آياته عن السياق الذى وردت فيه وعن مجمل النص •

ومما يسترعى الانتباه أن الآيات المتعلقة بالمسيحية مبــاشرة لا تتجاوز مائتى وعشرين آية من مجمل آياته البالغة اثنتين وثلاثين وستة آلاف ومائتى آية (٦٢٣٢) أى لا تمثل تلك الآيات المتعلقــة بالمسيحية سوى ثلاثة ونصف فى المائة من النص القرآنى خلاف ما كان يتوهم العديد من كتاب المسيحية الذين ليست لهم معرفة مباشرة بالقــرآن من أن غرضــه هو مهاجمــة العقائد المســيحية وتضليل النصارى[1] •

(*) لم يرد ذكر المسيحية فى القرآن والذى ورد هو « النصرانية » واستعملنا الأولى لكثرة تداولها وعدم ورود ما يمنع من استعمالها فى القرآن الكريم •

(1) The Khoury, Les thelogiens byzantins et l'Islam.

وبالاضافة إلى هذه النسبة الضئيلة يلاحظ أن هذه الآيات وردت فى ثنايا ثمان وعشرين سورة مختلفة لا تحتوى السورة أحيانا على أكثر من آية أو آيتين[٢] .

أما اذا حاولنا تتبع هذه الآيات، باعتبار الترتيب التاريخى للسور فإنه يتبين أن القرآن فى الفترة المكية الأولى — المرحلة السرية التى تشمل السنوات الثلاث الأولى من البعثة من ٦١٢ — ٦١٥ — لم يتناول الأغراض المسيحية ولم يذكرهم إلا على سبيل الإشارة فى آخر سورة الفاتحة ينعتهم بـ « الضالين » وفى سورة البروج إن أعتبر أصحاب الأخدود المذكورين فيها نصارى نجران الذين قتلوا سنة ٥٢م .

وفى الفترة المكية الثانية جاء حديث القرآن عن المسيحية على ثلاث مستويات :

تعرض فى المستوى الأول : إلى أشخاص زكريا ويحيى ومريم وعيسى بصورة لا تختلف فى جوهرها عما يؤمن به النصارى وعما ورد فى الأناجيل . حيث يقص القرآن نبأ تبشير الله زكريا — وقد بلغ من الكبر عتيا وكانت امرأته عاقرا — بيحيى (يوحنا المعمدان) وولادة مريم التى أحصنت فرجها لعيسى بنفخ من روح الله ودون أن يمسها بشر ليكون أية للناس ورحمة وما حف هذه الولادة من ظروف خارقة للعادة[٣] .

ويعرض فى المستوى الثانى : لضحد عقيدة بنوة المسيح لله

---

(٢) انظر : الفاتحة ٧ ، الأنعام ٨٥ ، الأعراف ١٥٧ ، يونس ٩٤ ، النحل ١٠٢ ، ١٠٣ ، الحج ١٧ ، العنكبوت ٤٦ ، ٤٧ ، الأحزاب ١٧ ، الشورى ١٣ ، ١٤ ، الفتح ٢٩ ، المجادلة ٢٧ ، الصف ٦ ، ١٤ ، التحريم ١٢ .

(٣) سورة مريم ١ — ٣٣ ، المؤمنون ٥٠ ، الأنبياء ٨٩ — ٩١ .

والتأكيد على أنه عبد ونبى جاء بالحكمة والبينات ودعا الى التوحيد وأنه علم للساعة[٤] .

وجاء المستوى الثالث : يتحدث عن صنفين من النصارى : أصحاب الكهف الذين ضربوا مثلا لامكانية البعث من ناحية ، والأحزاب الذين اختلفوا فى شأن المسيح « وقالوا اتخذ الله ولدا » دون أن يكون لهم به علم من ناحية ثانية[٥] .

وأبرز القرآن فى هذه المرحلة التعاطف مع الروم ضد الفرس[٦] ، وأشاد بالذين آمنوا بالاسلام من النصارى ومن اليهود[٧] ، ودعا إلى مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن مذكرا بأن دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل[٨] . شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[٩] .

وأبرزت آيتان من هذه الفترة دور أهل الكتاب وصلتهم بالقرآن فهم حجة على ما أنزل إلى النبى من عند الله : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين[١٠] .

ولكنهم ليسوا المصدر الذى يستقى منه النبى معلوماته كما يتهمه

---

(٤) مريم ٣٤ — ٣٦ ، الزخرف ٥٩ — ٦١ ، الكهف ٤ .
(٥) مريم ٣٧ ، الزخرف ٨١ ، الكهف ٤ ، ٥ .
(٦) الروم ١ — ٤ .
(٧) القصص ٥٢ ، ٥٥ ، العنكبوت ٤٧ .
(٨) العنكبوت ٤٦ وللشيخ محمود أبو رية كتاب بعنوان دين الله واحد على السنة جميع الرسل .
(٩) الشورى ١٣ .
(١٠) يونس ٩٤ .

بذلك كفار قريش : « ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين[١١] •

أما الفترة المدنية ٦٢٢ — ٦٣٢ م ، فقد وردت فيها جل الآيات المتعلقة بالمسيحية وشملت عددا أوفى من الأغراض كان بعضها قد أثير فى السور المكية وبعضها الآخر يتعرض له ابتداء •

ولئن كان عدد من المستشرقين يرون أن موقف القــرآن من النصارى واليهود قد مر بثلاث مراحل :

مرحلة أولى : كان محمد يتودد فيها إليهم ويعتبر أنه يتفق معهم فى الانتساب إلى نفس الديانة •

ومرحلة ثانية : ترتبت على انكارهم لدعوته فكان النزاع الذى أدى إلى مرحلة القطيعة • فلا شىء فى القرآن يقطع بالتراجع فى مبــدأ من مبادىء الاسلام وإنما وجد تطور طبيعى فى الدعوة أدى إلى توضيح ما جاء مجملا فى الفترة المكية • كما أن سلوك أهل الكتاب أنفســهم قد حدد نوعية ردود الفعل إزاءهم بحيث يتعين الفصل بين موقــف القرآن من النصارى كمجموعة اجتماعية عوملت حسب مقتضــيات الظرف الذى عاشه المسلمون زمن الدعوة من ناحية ، وبين موقفــه الثابت من العقائد المسيحية السائدة من ناحية ثانية وهو موقف لا يتسنى فهمه إلا على ضوء جوهر العقيدة الاسلامية ذاتها •

فقد أكدت العديد من الآيات على الوحدانية المطلقة وحددت آيات أخرى حقيقة عيسى وأمه فما هو « إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام »[١٢] أوتى الكتاب والحكم والنبوة[١٣]

---

(١١) النحــل ١٠٣ •

(١٢) المائدة ٧٥ •

(١٣) آل عمران ٤٨ ، ٧٩ •

والبينات وأيد بروح القدس[١٤] وأوحى إليه بالانجيل (الحديد ٢٧) وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (النساء ١٧١ ، التحريم ١٢) ولد من غير أب (آل عمران ٤٧ ، التحريم ١٢٣) ورفعه الله إليه (النساء ١٥٨) لن يستنكف أن يكون عبدا لله (النساء ١٧٢) مثله كمثل آدم خلقه من تراب ، دعا الناس إلى عبادة ربه وربهم (آل عمران ٥١) وبشر برسول من بعده اسمه أحمد (الصف ٦) نفى أن يكون اليهود قتلوا عيسى أو صلبوه (النساء ١٥٧) وآيات تذكر موت عيسى : والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (مريم ٣٣) وقوله يا عيسى إنى متوفيك (آل عمران ٣٥) وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم (المائدة ١١٧) •

ويصنف القرآن النصارى صنفين متميزين يتمثل الأولى منهما فيمن يمكن نعتهم بالنصـــارى المسلمين وهم فى الدرجـــة الأولى : الحواريون ثم الأمة المقتصدة[١٥] والذين لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين[١٦] • وذلك أن منهم قسيسين ورهبانا وأن فى قلوب الذين اتبعوا عيسى رأفة ورحمة[١٧] تجعلهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا وتدفعهم إلى تصديق النبى الموعــود فى الانجيـــل •

بينما يتمثل الصنف الثانى فى الكثرة الساحقة منهم وللقرآن عليهم مآخذ عديدة هى السبب فى نعتهم بالضلال والكفر وفى الشرك وفى دعوة المسلمين إلى عدم موالاتهم (المائدة ٥١) فتشبثهم بعقيدة التثليث وبنوة المسيح الالهية وألوهيته هى بلا شك الدافع الرئيسى الى ابتعادهم عن الاســـلام •

---

(١٤) البقرة ٨٧ ، ٢٥٣ .
(١٥) المائدة ٦٦ .
(١٦) المائدة ٨٢ ، ٨٣ .
(١٧) الحديد ٢٧ .

إن الغلو فى الدين (النساء ١٧١ ، والمائدة ٧٧) واتخاذ بعضهم بعضا (آل عمران ٦٤) أو الملائكة والنبيين (آل عمران ٨٠) والأحبار والرهبان (التوبة ٣١) أربابا من دون الله واتباع الهوى (البقرة ١٢٠ ، المائدة ٧٧) وكتمان الشهادة التى عندهم من الله (البقرة ١٤٠) أو ما يعبر عنه القرآن فى صيغة أخرى بكتمان الحق (آل عمران ٧١) وما أنزل الله من الكتاب (البقرة ١٧٤) وإخفائه (المائدة ١٥) والاختلاف فيه (البقرة ٢٥٣) ونسيان حظ مما ذكروا به (المائدة ١٤) والكفر بآيات الله ولبس الحق بالباطل (آل عمران ٧٠ ، ٧١) والى ألسنتهم بالكتاب والكذب على الله (آل عمران ٧٨) واتخاذ الدين الاسلامى هزوا ولعبا (المائدة ٥٧) وعدم اقامة التوراة والانجيل (المائدة ٦٨) كل ذلك أداهم إلى الانحراف عن السبيل القويم الذى دعاهم إليه عيسى وجاء محمد مذكرا به ومدعما اه[18] . فدعاهم إلى التخلص من ربقة التقليد ومن سلطة الكهنوت غير الجدير بالثقة الموضوعة فيه (التوبة ٣٠ — ٣٥) وأكد على التماثل المتين بين رسالتى عيسى ومحمد وحذرهم من أن « من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه (آل عمران ٨٥) .

وأخيرا إحتوت السور المدنية على الأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (التوبة ٢٩) فكانت هذه الآية مستند الذين يحبذون استعمال القول احل مشكلة تواجد النصارى خاصة فى البلاد الاسلامية . كما احتوت نفس هذه السور على ثلاث آيات شبيهة ببعضها كانت بالعكس مستند الذين يميلون إلى حلول الحوار والتعايش السلمى .

---

(١٨) لا شك ان الكثير من المآخذ كانت موجهة الى اليهود فى المقام الأول ولكن استعمال القرآن لعبارة اهل الكتاب عوض بنى اسرائيل أو اليهود يدل على أن النصارى كانوا كذلك مقصودين .

الآية الأولى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١٩] .

والآية الثانية : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد »[٢٠] .

والآية الثالثة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢١] .

ذلك هو حديث القرآن عن المسيحية وتلك هى المادة الأولى التى انبنت عليها كل المواقف الاسلامية إزاء المسيحية وهى تدل على مدى القرابة الموجودة بين الاسلام وبين الديانات الكتابية السابقة له وعلى عمق الفروق الحادة بينهما فى آن واحد مما يفسر الى حد بعيد الازدواجية فى العلاقات بين المسلمين والنصارى حيث كانت هذه العلاقة تتأرجح باستمرار بين الحوار والدعوة بالحسنى والشعور بالانتساب الى الاسرة الابراهيمية الواحدة وبين الاحتقار والعنف بمختلف أنواعه والرفض القاطع للآخر .

---

(١٩) البقرة ٦٢ .
(٢٠) الحج ١٧ .
(٢١) المائدة ٦٩ .

عيسى عنـــد النصـــارى(*)

أثبت البحث التاريخى الحديث بما لا يدع مجالا للشك أن سيرة عيسى عليه السلام لم تكتب فى عهده وأن الأناجيل ما هى إلا شهادات أناس مؤمنين عبروا فيها عن اعتقاداتهم فى أحداث سابقة عرفوها عن

(*) يلقب عيسى بالمسيح ومعناه الصديق وهو فيما يقال معرب واصله الشين وهو مشترك وقال ابن فارس والمسيح العزق والمســـيح الصديق والمسيح الدرهم الاطلس (الطلس) اى الدرهم الأملس لا نقش فيه .

والمسيح الجماع يقال مسحها اذا جامعها والأمسح المكان الأملس والمسحاء المراة الرسحاء التى لا است لها ، والمسائح قسى جياد واحدتها مسيحة . قال :

لهـــا مســـــــــائح زور فى مراكضـــها
لين وليس بهـــا وهـــن ولا رفـــــــق

واختلف فى المســـيح ابن مريم مم اخذ فقيل لانه مسح الأرض اى ذهب فيها فلم يستكن بكن وروى عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة الا برىء فكأنه سمى مسيحا لذلك فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل وقيل لانه ممسوح بدهن البركة كانت الانبياء تمسح به طيب الرائحة فاذا مسح به علم انه نبى وقيل لانه كان ممسوح الاخمصين وقيل لأن الجمال مسحه اى أصابه وظهر عليه وقيل سمى به بذلك لانه مسح بالطهر من الذنوب . وقال أبو الهيثم المسيح ضد المسيخ يقال مسحه اى خلقه خلقا حسنا مباركا ومسخه اى خلقه خلقا ملتويا قبيحا ، وقال ابن الاعرابى المسيح الصديق والمسيخ الأعور وبه سمى الدجال .

وقيل المسيح أصله بالعبرانية مشيحا بالشين فعرب كما عرب موشى بموسى . وأما الدجال فسمى مسيخا لانه ممسوخ احدى العينين وقد قيل فى الدجال مسيخ بكسر الميم وشد السين وقيل بفتح الميم وبالخـــاء والتخفيف . والأول أشهر وعلى الأكثر سمى به لانه يسيح فى الارض اى يطوفها ويدخل جميع بلدانها الا مكة والمدينة وبيت المقدس فهو فعيل بمعنى فاعل فالدجال يمسح الأرض محنة وابن مريم يمسحها منحة وعلى انه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول قال الشاعر : ان المسيح يقتل المســـيخا .

عيسى ولذلك فإن استغلال الوثائق المتعلقة بحياة عيسى لا يخلو من الصعوبة ويفرض على الباحث قدرا هاما من التواضع واعتبار نسبة من نتائج بحثه مجرد نظريات قد تكون مبنية على أساس متين ولكنها لا تدعى لنفسها صحة الأحداث التاريخية الموضوعة .

فالحديث عن عيسى — فى غير ما تناوله القرآن الكريم — حديث تعوزه الدقة والوثاقة التاريخية وإن كان فى مجمله يعطى صورة عامة . فالغموض يكتنف أصل عيسى ومكان ولادته وظروفها ، وليس من شأن الصبغة الشعرية التى تتميز بها أخبار الولادة فى انجيل متى ولوقا[1] — على الخصوص — رفع هذا الغموض .

ولعل الثابت فى هذا المجال أن عيسى ولد فى وسط يهودى فلسطينى متواضع حوالى سنة ٤ ق. م أما ما دون ذلك فلا يمكن تأكيده لعدم وجود المصادر الموثوقة مثل كيف أمضى سنى الطفولة والشباب والكهولة ؟ وكيف كان سلوكه ونظام حياته قبل دخول الحياة العامة من بابها الواسع ؟ هل تلقى تكوينا دينيا ؟ وهل انتسب إلى بعض الفرق الدينية الموجودة أنذاك ؟ وخاصة فرقة الاسينيين[2] .

=

و حديث مسلم فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم فنزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران) ... فيطلبه حتى يدركه بباب لد (قرية فى فلسطين قريبة من بيت المقدس) فيقتله (الحديث بطوله مسلم ٣٧٦/٢ طبعة بولاق) .

وقد قيل المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به وعيسى اسم أعجمى فلذلك لم ينصرف وان جعلته عربيا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة لأن فيه الف تأنيث . ويكون مشتقا من عاسه يعوسه اذا ساسه وقام عليه . أنظر تفسير القرطبى ٩٠/٤ .

(١) انظر الفصلين الأول والثانى من كلا هذين الانجيلين .

(٢) ميخائيل نعيمة مثلا يرجع انتساب عيسى ويوحنا الى هذه الفرقة فى كتابه من وحى المسيح ٢٩ ، ٣١ .

وتذكر الرويات أنه قضى طفولته وشبابه فى الناصرة القرية الجليلية البسيطة حيث لا يستبعد اشتغاله بالتجارة إلى حدود الثلاثين ، ومن المرجح أنه عرف هناك الفريسيين ، إلا أنه بمغادرته قريته وأسرته وبيئته الأولى للالتحاق بيوحنا المعمدان فى الصحراء قطع صلاته بالأوساط اليهودية التقليدية وانفصل عن مختلف فرقها • وهنا كانت بعض الأحداث ذات الدلالة العميقة على سير حياته • فقد التحق بالجماعة التى كانت تنشد من يوحنا تعميدها ، وعله أقام بعض الوقت ضمن مريدى المعمدان حتى بدا كأحد تلاميذه وصدر عنه تنويه باستاذه[3] • ورغم أنه انفصل فيما بعد عن تلاميذ يوحنا إلا أنه يظهر أنه اعتبر رسالته الشخصية امتدادا وتوسعا لرسالة ناسك الصحراء التى انتهت بايقافه وقتله[4] ، لا سيما بتبشيره بقرب حلول يوم الحساب وبضرورة التوبة ، وعدم حرمان أى تائب من الخلاص فى هذه الساعة المشهودة وليس من المستبعد أن يكون عيسى قد دعا إلى التوبة الكفيلة وحدها بإدخال الانسان إلى ملكوت الله •

وقد أحدث ايقاف يوحنا نحو سنة ٢٨ م تغييرا فى مجرى حياة عيسى إذ كف عن التعميد وشرع فى التأكيد على حلول ملكوت الله الذى انتقل من حقيقة منتظرة إلى واقع يقلب نظام الأمور العادى • وعوض حث الناس على الخروج إلى الصحراء قصد التوبة فإنه كان يأتيهم إلى بيوتهم بالبشارة المحررة التى توفر للجميع الرحمة الإلهية العاجلة وإمكانية العيش فى سلام مع الله وذلك بحصر مقتضيات الشريعة فى حب الله وحب الآخرين •

---

(٣) انظر متى ١١/٧ ١٥ ولوقا ٢٤/٧ — ٢٨ .

(٤) يروى ابن كثير سبب قتل يحيى بأن احد ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج احدى محارمه أو من لا يحل له تزوجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقىفى نفسه منه فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعث اليه من قتله وجاء برأسه وقدمه فى طست : انظر البداية والنهاية ٣/٥٣ ، ٥٤ .

وصاحب هذا قيامه بابراء المرضى الذى كان له وقع عميق فى نفوس أولئك الناس البسطاء الذين كان المرض بالنسبة إليهم لعنة لا أمل فى التخلص منها . ومن العسير أن نتبين بصفة يقينية كيف كانت تسير الأمور عندما يتقدم المرضى إلى عيسى ، ومن الثابت أنه كان يملك قدرة خارقة على المداواة وأنه كان يفعل ذلك بدون مقابل مما دعم لدى مستمعيه صحة رسالته وخاصة تأكيداته على حلول ملكوت الله حتى إن بعضهم استنتج أنه المسيح المنتظر ، لا سيما وأنه وضع نفسه ضمن زمرة أنبياء إسرائيل وأعلن عن قرب تحقيق أمل شعبه .

وقد سعى عيسى إلى تجميع اسرائيل فى أطر جديدة وهذا ما يعنيه خطابه لبطرس فى انجيل متى[٥] . وتشير الدلائل إلى أنه لم يتخذ أسلوب المقاومة وإنما احتفظ الى آخر عهده بعلاقات وثيقة مع بعض الأوساط المسئولة فقد قبل أن يدعى الى موائدهم وأن يتحدث اليهم ويقدم لهم آراءه فى ذاك الشكل المغرى والموحى فى نفس الوقت وهو « الأمثال » فكانت تلك الحكايات أصل الأحاديث المتداولة عند أصحابه ومعارفه ولكن استعمالها اللاحق كشواهد على التعاليم المسيحية كثيرا ما حاد بها عن غرضها الأصلى وحملها معنى جديدا لم يكن متوفرا لها كحكايات مؤدية الى سلوك أخلاقى محتشم .

وكان عيسى مستقل الفكر تجاه العظماء من أغنياء ووجهاء وأحبار وقد حاول فك القيود العائلية التى كانت تكبله وتكبل أتباعه[٦] . كما حاول مقاومة الضغط الاجتماعى الذى تمارسه السلطة الدينية من فريسيين وكتبة وصدوقيين . كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم مؤهلين دون

---

(٥) وانا اقول لك انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سابنى كنيستى وابواب الجحيم لن تقوى عليها . متى ١٦/١٨ .

(٦) انجيل متى ١٢/٤٦ — ٥٠ ، مرقس ٣/٣١ — ٣٣ ، لوقا ١٤/١٦ — ٢٨ .

غيرهم لتفسير الشريعة وكان هو لا يعترف لهم بهذه السلطة فأنكر وظيفتهم الاجتماعية ولم يتحرج فى مقابل ذلك من معاشرة الأصناف الهامشية والمنبوذة فى المجتمع اليهودى من عشارين وبغايا وأناس بسطاء محتقرين لجهلهم بالشريعة[٧] •

لكن حادثا برز فى دعوته قد يظهره لنا ملتجئا الى نوع من العنف المادى لاصلاح المؤسسة اليهودية المركزية ، ذلك هو طرد تجار الهيكل ، وهو حادث تبدو صفته التاريخية مؤكدة فى جملته[٨] •

فبطرده العنيف الصيارفة الذين يوفرون للحجيج النقود الخالية من الصور البشرية حتى يتمكنوا من أداء الضريبة الهيكل وكذلك للتجار الذين يعرضون على المؤمنين الحيوانات الصالحة لاقربان إنما يهاجم أقوى وسط فى الشعب اليهودى وسط المنصرفين فى الهيكل وفى ثرواته وطقوسه وبالتالى يهاجم الحبر الأعظم ذاته بنفس الطريقة التى كان يسلكها الغيورون •

وقد تم ذلك عن إرادة واضحة عنده فى مقاومة أعلى السلطات اليهودية مما أسهم فى التعجيل بنهايته • إذ وفر هذا الحادث التعلة التى مكنت من ايقاف عيسى ومحاكمته •

وكانت وصايا عيسى — بقطع النظر عن مسألة صحة نسبتها إليه — تنم أحيانا عن رغبة فى التخفيف من شدة الواجبات الشرعية التى عند اليهود ، وتبدو أحيانا أخرى على نقيض ذلك أكثر تشددا بالنسبة لما كانت عليه الممارسات اليومية على الأقل وكان هدفها ينحصر باستمرار فى بيان أقوم السبل للوصول الى ملكوت الله ، فعيسى لم يدع الاتيان بشريعة جديدة •

---

(٨) انجيل مرقس ١٥/١١ — ١٨ •

(٧) انجيل لوقا ٣٦/٧ ويوحنا الفصل التاسع •

على أن عيسى قد بذل جهدا خاصا فى توفير تعليم أعمق لعدد من الأشخاص فيما يخص شخصه ورسالته والطريقة التى ينبغى بمقتضاها تصور الطاعة الجديدة فى ملكوت الله • فانتدب تلامذة اعتنى بتعليمهم وطالبهم بتضحيات جسيمة ، بأن فرض عليهم حياة جماعية وغير مستقرة تجبرهم على قطع كل صلة بوسطهم ، ولكن هؤلاء التلاميذ الذين كان الاثنا عشر يمثلون نواتهم لم ينتدبوا إلا لمواصلة نشاطه ونشر انجيل حلول ملكوت الله على أوسع نطاق •

وبعضهم مثل شمعون وبطرس ويوحا ويعقوب وأحيانا اندرياس كانوا مجرد أعضاء مهمتهم الأولى اصطياد الناس ، وايقاع أكثر عدد ممكن منهم فى شباك دعوتهم •

ومن الراجح أن رأيهم فى عيسى لم يعد — كما عبر أحدهم — أنه « كان رجلا نبيا ذا قوة فى العمل والقول أمام الله والشعب كله ••• ونحن كنا نرجو أنه هو هو المزمع أن يفدى اسرائيل »(٩) ولئن كانوا يخاطبونه بعبارة « ربى » الدالة على الاحترام والمرادفة لقولنا اليوم « سيدى » فلم يكن يعنى ذلك إلا أنه صاحب كرامات أو نبى •

لكن سرعان ما وضع حد لعيسى ودعوته فقد أوقعت السلطات اليهودية نبى الناصرة فى أعقاب فترة دامت حوالى سنتين وأسلمته إلى الرومانيين باعتباره مشوشا للامن العام فنسبت اليه تهمة ادعاء الملك على اليهود فقدم للقتل والصلب — على حد تعبير الأناجيل — بطريقة كانت مرادفة الأكبر لعبة فى تلك البيئة •

وهكذا تبدو محاكمة عيسى وموته حادثتين عاديتين جدا • لقد كان مصيره مصير الكثيرين ممن اصطدموا بالمصالح المشتركة وبالنظام السياسى القائم فلا يمكن للسلطة الدينية إلا أن ترى فى عيسى نبيا

---

(٩) انجيل لوقا ١٩/١٤ — ٢١ •

كاذبا فى اعلانه عن حلول ملكوت الله ، ودون الاهتمام بآراء علماء الدين والكهنة ، أما السلطة السياسية فكان من الطبيعى ألا تغامر بمصالحها العليا فى استتباب الأمن فى فلسطين فى سبيل انقاذ حياة برىء •

ويبدو أن عيسى كان شاعرا بالخطر الذى يتهدده فبذل كل جهوده ليمنع جر اتباعه الى الموت معه ، وفعلا هرب التلاميذ بعد مقاومة رمزية ونجوا من التتبعات بالاختفاء فى أماكن مختلفة •

وترك عيسى تلاميذه ولم يترك لا نصا مدونا ولا مجموعة منظمة ولا حتى رسالة يمكن نقلها وروايتها • إلا أنه استطاع أن ينتزع التلاميذ المتفرقين والمثبطة عزائمهم من مخابئهم بظهوره المتتالى بعد بضعة أيام من دفنه — كما تروى الأناجيل — •

كان عيسى يقدم نفسه اليهم ويحثهم على مواصلة المشروع المنقطع مؤكدا لهم أنه نجا من الموت وأنه يتمتع الآن بمرتبة وقدرة إلهيتين تتجاوزان طاقته البشرية الأرضية تجاوزا مطلقا[١٠] •

تلك هى أهم الملامح عن حياة عيسى — من غير القرآن الكريم — هى إذ أرضت المسيحيين فليس من شأنها أن ترضى المسلمين الذين يلتزمون فى شأنه بما تحدث به القرآن الكريم •

---

(١٠) انظر مثلا رؤيا يوحنا (١٧/١ ، ١٨) حيث يبدو عيسى القاهر للموت والمتخلص من القوانين الطبيعية والاجتماعية وتضفى عله صفات الله : « فلما رأيته سقطت عند قدميه كالميت فوضع يده اليمنى على قائلا : لا تخف انا الأول والآخر والحى وقد كنت ميتا وها أنا حى الى دهر الدهور والى مفاتيح الموت والجحيم » •

الكلمـــــة

فى القــرآن الــكريم

ورد لفظ « كلمة » ثلاث مرات فى القرآن الكريم فى شأن[١] عيسى عليه السلام • مرتان فى آل عمران فى قوله تعالى : « إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله »[٢] وقوله تعـالى : « إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم[٣] ومرة فى النســاء فى قوله تعــالى : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »[٤] •

وقد حاول بعض النصارى أن يفهم من هذه الآيات أن القرآن قد وافق عقيدتهم فى أن عيسى كلمة الله ، أو أن الكلمة حلت فيه وتدرعت به وأنه بذلك إله ورأوا أن حديث القرآن بشــأن عيسى والكلمة قريب أو شبيه بما جاء فى انجيل يوحنا « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله والكلمة صار جسدا وحــل بيننا »[٥] •

لكل التأمل والفهم الصحيح القرآن الكريم يبين أن عقيدته تقوم على نفى أو استحالة أى علاقة (انطولوجية) بين الله والانســان وعلى نفى أو استحالة أن يكون أحد إلهــا وإنسانا فى نفس الوقت ويعتبر ذلك عين الشرك أى الكبيرة التى لا تغتفر وذنب فى حق الله لا مجال للتسامح فيه • وآيات القرآن جد صريحة فى نفى هــذه

---

(١) أما لفظ كلمة ومشتقاتها فورد اكثر من ثلاثين مرة فى القرآن الكريم •

(٢) آية ٣٩ •

(٣) آية ٤٥ •

(٤) آية ١٧١ •

(٥) يوحنا أصحاح ١ فقرات ١ — ٤ •

العلاقة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم »[٦] ، « وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يوفكون • اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم »[٧] و « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل »[٨] •

ويظهر الفرق جليا بين عقيدة القرآن وعقيدة الأناجيل فى هـذه المسألة فى الفرق بين قوله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهكفوا أحد »[٩] وبين عبارة الأناجيل : « باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد »[١٠] فمن هذين المفهومين للتوحيد الالهى يتضح الفرق بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصـارى فى مفهوم التوحيد والكلمة ، وحول هذين المفهومين أثيرت المجادلات العنيفة بين المسلمين والمسيحيين بل باسم هذا المفهوم أو ذاك قامت حروب وأزهقت نفوس رغم إقرار الطرفين بأن الله واحد لكن مـع اختلاف فى المفهوم بين مفهوم الوحدة والتوحد •

ويوجد من بين فرق النصارى من يدينون بالتوحيد الخـالص أظهرها فرقة « الأريوسية » التى كانت وفية للتوحيد اليهودى وكانت تؤمن بأن عيسى المسيح نبيا وتنكر أن يكون الها أو ابن إله[١١] •

وقد رد على زعم بعض النصارى أن القرآن وافق عقيدتهم فى شأن المسيح « الكلمة » بأن القرآن وصف عيسى بأنه كلمة الله ألقاها

---

(٦) المائدة : ٧٢ •
(٧) التوبة ٣٠ ، ٣١ •
(٨) الزخرف ٥٩ •
(٩) سورة الصمد •
(١٠) انجيل متى ١٩/٢٨ •
(١١) عن الفرق الموحدة فى المسيحية انظر : الناشىء الاكبر : الكتاب الأوسط فى المقالات ص ٥٢ والقاضى عبد الجبار فى المغنى ٨٥/٥ والباقلانى فى التمهيد ١٦٥ وكذلك تفسير الطبرى ٨٣/١٦ •

إلى مريم « وكلمته ألقاها إلى مريم » ولم يقتصر على ذكر أنه كلمته فقط وإنما أردفها بقوله « ألقاها إلى مريم » فعيسى ليس كلمة الله ولكنه بكلمة الله التى ألقاها إلى مريم كان وخلق ، والكلمة أو كلمة الله التى خلق بها عيسى هى كلمة « كن » كما جاء فى قوله تعـــالى : « إنما مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » والقرآن يفسر بعضه بعضا .

وللجاحظ كلام جميل ورد منهجى مقنع على شبهة بعض النصارى فى هذه الآية عندما يذكر : فإن قالوا : أليس المسيح روح الله وكلمته كما قال عز ذكره « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » أو ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أمه أنه نفخ فيها من روحه ؟ . فأى شىء بقى من الدلالات على مخالفته جميع الخلق ومباينته جميع البشر ؟ قلت لهم : إنكم سألتمونا عن كتابنا وما يجوز فى لغتنا وكلامنا ولم تسألونا عما يجوز فى لغتكم وكلامكم ولو أننا جوزنا فى لغتنا ما لا يجوز وقلنا على الله ما لا نعرف كنا بذلك عند الله والسامعين فى حد المكابرين وأسوأ حالا من المتنطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم وجزنا بكم فوق أمنيتكم ، ولو كنا إذا قلنا عيسى روح الله وكلمته وجب علينا فى لغتنا أن يجعله الله ولدا ونجعله مع الله تعالى إلها وتقول إن روحا كانت فى الله فانفصلت منه إلى بدن عيسى وبطن مريم لكنا إذا قلنا : ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس وجب علينـــا أن نقول فيه ما يقولون فى عيسى وقد علمتم أن ذلك ليس من ديننا ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله ودينا لا نرتضيه ؟

ولو كان قوله جل ذكره فنفخنا فيه من روحنا يوجب نفخا كنفخ الزق أو كنفخ الصانع فى المنفاخ وأن بعض الروح التى كانت فيه انفصلت إلى بطنه وبطن أمه لكان قوله فى آدم يوجب له ذلك »(٢)

---

(٢) رد الجاحظ ٣٦ ، ٣٧ .

ويقصد بذلك قوله فى قصة آدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »(١٣) ولم يوجب ذلك أن يكون رحا لله فى الحقيقة أو ابنا له فكذلك القول فى عيسى •

فالجاحظ هنا يرى أن تعريف القرآن لعيسى بأنه روح الله وكلمته لا يوجب فى اللغة العربية الاقرار بأن عيسى هو الله أو ابن الله لا سيما وأن نفس الآية ١٧١ من سورة النساء تنفى أن يكون له ولد ، والآية التالية تؤكد أن المسيح لن يستنكف أن يكون عبدا لله • وهذا لا يعنى أنه يجوز ألوهية عيسى فى غير العربية وإنما أراد فقط قطع الطريق أمام من يستشهد بالقرآن على هذه العقيدة •

ولأبى على الجبائى تأويل آخر لنعت القرآن عيسى بأنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم يذهب فيه إلى أن الغرض بوصفه عيسى بأنه كلمة الله أن الناس يهتدون به كاهتدائهم بالكلمة ، ومعنى قولنا : إنه روح الله أن الناس يحيون به فى دينهم كما يحيون بأرواحهم الكائنة فى أجسادهم وذلك توسع وتشبيه له بالكلمة التى هى الدلالة ، والروح الذى يحتاج الحى منا إليه • وهذا كما يسمى الكلام الذى يهتدى به نورا وشفاء من حيث يعرف به الحق كما يعرف الطريق بالنور ، ومن حيث تقع به النجاة فى الدين كما يقع بالدواء الشفاء ، ولا يجب إذا تجوز بكلمة فى غير موضعها أن يتجوز بأخرى من غير دلالة فلذلك لم نقل فى عيسى أنه ابن الله قياسا على قولنا إنه روح الله وكلمته •

وكذلك قيل فى جبريل إنه الروح ولم يقل فيه إنه الابن ، ولا فصل بين من طلب منا إطلاق لفظ الابن عليه من حيث وصفناه بأنه روح وبين مطالبتنا بأنه يسمى أبا أو أخا لله قياسا على ذلك لأن معانى الجميع فى الحقيقة لا تصح فى الله ، ولا الوجوه التى يقال فيها على جهة المجاز إن الانسان ابن لغيره تصح فى الله تعالى »(١٤) •

---

(١٣) الحجر ٢٩ •

(١٤) المغنى ١١١/٥ — ١١٢ •

وقد جارى الجبائى فى هذا التأويل والرد تلميذه عبد الجبار وأضاف تحديدا للكلام بأنه الحروف المنظومة بحيث لا يمكن أن يكون عيسى — وهو جسم — كلاما إلا من باب المجاز ، والمجاز القرآنى لا قياس فيه فقال بالخصوص : « وأما تسميتهم له بأنه كلمة الله فلا تصح فى الحقيقة لأن الكلام على الحقيقة هو الحروف المنظومة ، وعيسى هو جسم فلا يصح كونه كلاما وإنما قيل إنه كلمة لله من حيث يهتدى به وبدعائه[١٥] .

ويورد الفخر الرازى عدة تفسيرات للمقصود من أن عيسى كلمة الله : منها أنه خلق بكلمة الله وهى قوله « كن » من غير واسطة الأب ومنها أنه تكلم فى طفولته أو أن الكلمة كما أنها تقيد المعـــانى والحقائق كذلك عيسى كان يرشد الى الحقائق والأسرار الإلهية ، وأنه قد وردت البشارة به فى كتب الأنبياء الذين كانوا قبله فلمـــا جاء قيل هذا هو تلك الكلمة أو أن الانسان قد يسمى بفضل الله ولطف الله فكذا عيسى كان اسمه العلم كلمة الله[١٦] .

وكما أطلق على عيسى أنه روح أطلق على جبريل أنه روح القدس وأنه الروح الأمين وعلى القرآن « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » والمقصود من الروح الحياة أو الرحمة أو روح من الله خلقها وصورها ثم أرسلها إلى مريم أو جبريل .

ويفصل العـــامرى القـــول فى المقصـــود من الروح فيذكر أن الأرواح التى هى منسوبة — لفضل شرفها — إلى الله تعالى صنفان :

أحدها : النطقية التى بها يتوصل إلى العقل والتى جاءت فى

---

(١٥) السابق ١١٠/٥ .

(١٦) مفاتيح الغيب ٣٣/٨ وارجع الى « أبو العلا عفيفى : نظريات الاسلاميين فى الكلمة » .

قوله تعـالى : « أولئـك كتب فى قلوبهم الايمـان وأيدهم بروح منـه »[١٧] •

والآخـر : القدسـية التى خص بها الأنبياء صلوات الله عليهم وإليه يتجه قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »[١٨] •

وكان عيسى من الخصوصية بهذه الروح بحيث سمى باسمها على الاطلاق فقال روح الله وكلمته • قال تعالى : « وأتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[١٩] ثم لم ينل أحد من قرية التأييد بها غير محمد صلى الله عليه وسلم وبه نطق القرآن « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا يهدى به من نشاء من عبادنا » وبقوله « قل نزله روح القدس من ربك بالحق »[٢٠] وبه شهد لنفسه بقوله : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »[٢١] •

والمتأمل للآيات القرآنية يجدها لا تنعت عيسى بأنه كلمة وإنما كلمة الله ألقاها أو كلمة منه وأن الروح عندما ترد فى القرآن مرادا بها عيسى ترد مضافة إلى الله باضطراد •

ولقد كان لامتناع نصارى نجران من المباهلة التى دعاهم اليها النبى وأشارت إليها الآيات « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من

---

(١٧) المجادلة ٢٢ •
(١٨) غافر ١٥ •
(١٩) البقرة ٣٧ ، ٢٥٣ •
(٢٠) الآيتان على التوالى : الشورى ٥٢ ، النحل ١٠٢ •
(٢١) العامرى : الاعلام بمناقب الاسلام ٢٠٦ ، ٢٠٧ وانظر الدين والدولة له ايضا ٢٦ •

العلم فقل تعالى ندع أبناءنا وأبناءكم ... »[٢٢] الأثر البالغ فى ترسيخ اعتقاد المسلمين أن عيسى ليس سوى بشر خلق بواسطة الأمر الالهى كن ، وأن القول بألوهيته من باب الشرك واتخاذ أرباب من دون الله وتولى النصارى عن المباهلة دليل على الكذب والفساد ويلخص الباقلانى ذلك بقوله : « فامتنعوا من المباهلة خوفا من القتال وأليم العقاب وأن ينزل بهم ما توعدهم به وليس ذلك إلا لعلمهم بصدقه وثبوت نبوته »[٢٣] .

---

(٢٢) الآيات ٥٩ — ٦٤ من سورة آل عمران . وقد روى فى شأن هذه المباهلة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ان الله امرنى ان لم تقبلوا الحجة أن اباهلكم . فقالوا يا ابا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك قلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا راى يا عبد المسيح ما ترى فقال : والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالكلام الحق فى اصحابكم والله ما باهل قوم قط نبيا فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال فان ابيتم الا الاصرار على دينكم والاقامة على ما انتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر اسود وكان قد احتضن الحسين واخذ بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضى الله عنه خلفهما وهو يقول : اذا دعوت فأمنوا . فقال اسقف نجران : يا معشر النصارى . انى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانا لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا الا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال صلى الله عليه وسلم : فاذا ابيتهم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين فأبوا . فقال انى اناجزكم القتال فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن تصالحك على الا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك فى كل عام الفى حلة الفا فى صفر والفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك ، وقال والذى نفسى بيده أن الهلاك قد تدلى على اهل نجران ولو لاعنوا لمسحوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، مفاتيح الغيب ٢/٧٠٤ .

(٢٣) التمهيد ١٥٨ ، ١٥٩ وانظر عن المباهلة طبقات ابن سعد ١/٣٥٧ ، القاضى النعمان : دعائم الاسلام ١/١٧ ، ١٨ الواحدى : أسباب النزول ٦٧ .

ويورد الطبرى فى تفسيره أن النصارى أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا . فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا نعم .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا بلى :

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا .

قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا بلى !

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم ؟ قالوا لا .

قال : فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث . قالوا بلى .

قال : ألستم تعلمون عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها . ثم غذى كما يتغذى الطفل الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ قال : فعرفوا ثمأبوا إلا جحودا فأنزل الله تعالى أول سورة آل عمران : « آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

وقد بلغ رفض المسلمين وامتعاضهم من نسبة أب إلى عيسى حد المنع من التكنى بأبى عيسى . يروى أبو داود فى سننه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب ابنا له تكنى أبا عيسى وأن المغيرة بن شعبة تكنى بأبى عيسى فقال له عمر أما يكفيك بأن تكنى بأبى عبد الله ؟! فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانى فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنا فى جلجتنا »[٢٤] .

ويعبر الجاحظ عن شناعة ما يؤمن به النصارى من بنوة المسيح الالهية بقوله : « ولولا أن الله حكى عن النصارى أنهم قالوا : « المسيح ابن الله ، وقال : قالت النصارى المسيح ابن الله »[٢٥] فكنت لأن آخر من السماء أحب إلى من أن الفظ بحرف مما يقولون »[٢٦] .

وهذا المنع ليس مرده إلى أن أبا عيسى سماوى وإنما الى أن ولادة عيسى كانت من غير فحل وإلى وجوب تبرئة أمه مما قذفها به اليهود إذ أن الله هو الذى برأها كما برأ عائشة من حديث الافك ، وأنها تحظى بتقدير خاص فى كثير من آيات القرآن الكريم فهى صديقة أحصنت فرجها ، اصطفاها الله على نساء العالمين وطهرها وأنعم عليها وألقى إليها كلمته وروحا منه وجعلها وابنها آية[٢٧] . وكذلك فى عدد من الأحاديث النبوية فهى مثلا المولود الوحيد الذى عصم من طعنة الشيطان وهى الكاملة من النساء . كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

---

(٢٤) سنن ابى داود ٢/٢٥٧ .

(٢٥) التوبة ٣٠ .

(٢٦) رد الجاحظ ٢٧ .

(٢٧) على الترتيب آل عمران ٤٢ ، النساء ١٧١ ، المائدة ٧٥ ، ١١٠ ، المؤمنون ١٠٣ ، التحريم ١٢ .

الكلمـــــة

عنـــد النصـــــارى

ولدت النصرانية فى مهد يهودى ، وكان اليهود يرون فى الكلمة أكثر من صوت فالكلمة لها قوتها ولها وجودها الذاتى المستقل يقـــول أحد الباحثين[1] : « الكلمة المنطوقة عند العبرانى كانت قوة حية رهيبة » والعهد القديم حافا، بالاشارة الى قوة الكلمة فحينمــا خدع اسحاق — كما يروى سفر التكوين — ونطق بالبركة ليعقوب بدلا من عيسو البكر لم توجد هناك قوة تستطيع أن تسترد البركة ولم يبق للبكر سوى اللعنة ، لقد خرجت االكمة من فيه لتعمل عملها — حسب زعمهم — ولا تستطيع قوة على الأرض أن توقفها[2] .

كما أن الخلق كان بالكلمة ففى بداية سفر التكوين يفتتح كل فصل من فصول الخلق بالقول : « وقال الله ليكن نور فكان نور ، وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ... » وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة ... وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا[3] ... الـــخ .

وفى سفر المزامير : « بكلمة الرب صنعت السموات » ، « أرسل كلمته فسقاهم ونجاهم من تهلكتهم » ، « يرسل كلمته إلى الأرض »[4] .

وفى العهد القديم بجملته إشارات متعددة يضيق بها المقام عن قوة الكلمة وأثرها .

---

(١) حبيب سعيد فى كتابه : اديان العالم ٢٨١ .

(٢) سفر التكوين : الاصحاح ٢٧ .

(٣) السابق : الاصحاح الاول ٣ ١١ .

(٤) المزمور ٦/٢٣ ، المزمور ٢٠/١٠٧ والمزمور ١٥/١٤٧ .

وجاء فى انجيل يوحنا : فى البدء كان الكلمة واللكمة كان عنـــد الله كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان[٥] .

والكلمة هنا — عند يوحنا وعند النصارى عامة — ليست واحدة من كلمات الله التى خاطب بها أنبياءه وليست كلمة « كن » التى خلق بها المخلوقات إنما هى كلمة خاصة تعنى ذكر الله أو ابن الله أو ذات الله .

والمسيح ليس منتوج هذه الكلمة وانما هو الكلمة ذاتها حل فى جسد بشرى يقول أحداهم :[٦] « إن المسيح لم يدع كلمة الله لأنه مخلوق بكلمة الله بل دعى بذات كلمة الله وإلا فكل الخلائق مخلوقة بكلمة الله فهل ندعوها كلمة لله ؟ » وكلمة الله هذه غير كلمته المكتوبة فى الكتاب المقدس . كلمة الله ذات اسمه المسيح والكلمة المكتوبة ليست بذات وكلمة الله تجسدت والكلمة المكتوبة لن تتجسد والكلمة المكتوبة ليست الله والكلمة المتجسدة هو الله .

فعقيدة النصارى تقوم على تجسد الكلمة أو على التثليث الموحد بين الآب والابن والروح القدس : الآب غير مولود ، والابن ابن ولد ومولود وروح القدس لا والد ولا مولود وكل واحد من الثلاثة موجود ، هذه الثلاثة لم تزل جميعا معا لم يسبق بعضها فى الوجود بعضا : « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . فالثلاثة كلها واحد فى الطبيعة والجوهر ، وهذا الواحد فى الجوهر ثلاثة فى الأقانيم » « فى الجوهر صاروا فردا وفى الأقانيم ثلاثة عدا . فالجوهر يجمعهم ويوحدهم والأقانيم تفرقهم وتعددهم .

أنزل واحد من هؤلاء الثلاثة وهو الابن إلى الأرض رأفة بالبشر والانس من غير مفارقة منه للأب ولا لروح القدس ، يقول الكندى :

---

(٥) الاصحاح الأول : الفقرات ١ — ٤ .

(٦) القديس منصور .

« إن فرقهم أى النصارى جميعا يقرون أن ثلاثة أقانيم لم تزل جوهرا واحدا ، يريدون بالأقانيم أشخاصا وبجوهر واحد أن كل واحد منهم موجود بخاصته[٧] .

والابن هو الكلمة والروح هى الحياة وهى التى تدعى عندهم روح القدس ، والابن لم يزل مولودا من الأب ولم يزل الأب والدا للابن ولم يزل الروح القدس منبثقا أو فائضا وولادة الابن من الأب ليست كولادة المتناسلين وإنما هى على نحو آخر . اختلفوا فيها وفى تجسد الكلمة فى عيسى وتولد عيسى من الكلمة .

فطائفة الملكانية ترى أن الأقانيم هى الجوهر والجوهر غير الأقانيم وطائفة اليعقوبية والنسطورية ترى أن الجوهر هو الأقانيم والأقانيم هى الجوهر .

وحاولوا تقريب اتصال الكلمة بعيسى الى الأذهان فمنهم من شبه ذلك باشتعال النار فى العليقة ، عندما تضيىء العوسج ولا تحرقه يقول متى فى انجيله : « ... تضلون لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله فإن لم يكن مستحيلا على الله محب الصلاح أن يخضع نفسه لحدود البشرية وهذا هو ما سبق موسى وأعلنه مبينا لنا فى مثال كيفية التجسد فإن الله قد نزل فى العليقة فى البرية بمنظر النار وكان يضىء العوسج ولا يحرقه وكان موسى يتعجب من هذا المنظر لأن الخشب بطبعه لا يحتمل النار فكيف استطاعت المادة القابلة للاحتراق أن تحتمل اشتعال النار فيها بدون أن تحرقه ؟ لقد كان ذلك مثالا السر الذى استطاعت طبيعة اللوغوس (الكلمة) الالهية أن تخضع نفسها لحدود البشرية لأنه أراد ذلك ولأنه لا يستحيل عليه شىء قط ، وكما أن النار كانت تضىء العليقة دون أن تحرقها هكذا —

---

(٧) رد الكندى ص ٤ وانظر رد الحسينى ١٤ — ١٦ والمغنى ٥/٨١ .

أيضا ــ اللوغوس لما تجسد لم يحرق الجسد الذى اتحد به بل على العكس جعله جسدا محببا »[٨] •

ومنهم من يشبه ذلك بالجمرة المشتعلة ، فالجمرة مثال لاتحاد كلمة الله بالطبيعة البشرية فكما أن النار حينما تتصل بالفحم وتدخل فيه تستحوذ على كيانه وتحوله ليس عن كونه فحما بل بالحرى تحوله الى مظهر النار وقوتها وتضع فيه جميع صفتها الخاصة حتى إنه يعتبر واحدا منها فكذلك المسيح لأن الله المتجسد بالناسوت قد حفظه ناسوتا بالصفات الخاصة بالناسوت وهو نفسه قد بقى إلها كما كان وهو بعد الاتحاد واحد مع ناسوته[٩] •

ويشرح القديس « كيرلس الكبير »[١٠] هذا التوجيه فيقول : « ••• إن ربنا يسوع المسيح هو وحده دون سواه الجمرة الروحيــة الموضوعة على المذبح حيث يقدم ذاته من أجلها كرائحة بخور زكية لله أبيه ••• » إذن فهو الجمرة الالهية التى تمس شفتى من يقترب إليها فتجعله للتو طاهرا نقيا من كل إثم ••• والمسيح يشبه الجمرة لأنه مثلها يعتبر من شيئين مختلفين ولكنها باجتماعهما معا قد اقتربا معا فى وحدة لأن النار حينما تدخل فى الفحم تحوله بنوع ما الى مجدها الخاص ومع ذلك فهو يبقى على ما كان عليه •

ومنهم من يشبه اتحاد الكلمة باتحاد الحديد بالنار فكما أن الحديد إذا قربناه من نار شديدة يكتسب للوقت مظهر النار ويشترك فى صفات ذلك العنصر الغالب هكذا أيضا طبيعة الجسد التى اتخذها لنفسه الكلمة لم تبق على حالها الأول بل قد انعتقت من الفساد والفناء وسادت عليهمــا •

أو كاتصال النار بالماء • فاذا كانت النار المرئية تدخل فــوق

---

(٨) انجيل متى ٢٢ ، ٢٣ •
(٩) سفر أشعياء ٦ ، ٥ •
(١٠) كتاب التجسد الالهى ٢٤ ، ٢٥ •

طبيعتها الخاصة فى المواد التى تتصل بها وتحول الماء نفسه البارد بطبيعته إلى ما يخالف طبيعته إذ تجعله حارا فكيف لا تؤمن أن الكلمة الذى من الله الأب قد جعل جسده الخاص المتحد به جسدا محييا[١١] •

ومنهم من يرى أن الكلمة أشرقت على الجسم إشراق النور على الجسم الشفاف أو انطبعت فى الجسد كانطباع النقش فى الشمع أو ظهرت الكلمة فى الجسد كظهور الروحانى بالجسمانى أو تدرعت به تدرع اللاهوت بالناسوت أو مازجته ممازجة اللبن بالماء أو تولدت منه تولد الكلمة من العقل •

ومنهم من قال إن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئا لكنها مرت بجسدها كمرور الماء بالميزاب أو مرور السهم فى الهواء فلم تضف إليه شيئا ، وأصحاب هذا الرأى هم الذين يقولون إن ما ظهر من شخص المسيح فى الأعين فهو كالخيال والصورة فى المرآة وليس جسما متجسدا فى الحقيقة ، وإن القتل والصلب قد وقعا على الخيال ، أو أن الكلمة تداخل جسم المسيح حينا وتفارقه أحيانا وأنه فى حين التداخل تصدر عنه الآيات كاحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وغير ذلك وفى حين المفارقة ترد عليه الآلام والأوجاع[١٣] •

ومنهم من يرى أن كيفية اتحاد الكلمة وتجسدها عميقة حقا وفوق مدارك البشر « فمن الجهالة التامة أن تخضع المبحث العلمى ما يفوت العقل وأن نحاول أن ندرك بعقولنا الذى لا يدرك بالعقل •• إن كيفية أن يصير الرب جسدا سر جدير أن يعبد فى صمت وإيمان[١٣] •

فالله الكلمة قد تجسد بوحدانيته لا يعبر عن كيفياتها • ولكن وإن كنا لا نستطيع أن نعرف كيفية الاتحاد الاقنومى فإنه يمكن أن نعرف صفات هذا الاتحاد التى من أهمها :

---

(١١) كتاب التجسد الالهى ٢٥ •
(١٢) الملل والنحل بهامش الفصل ٥٩ — ٦٣ •
(١٣) التجسد الالهى ٢٠ ، ٢١ •

— أنه اتحاد حقيقى طبيعى جوهرى أقنومى وليس مجـرد علاقة نسبة أو مشاركة أو سكنى •

— أن ما ينتج عن هذا الاتحاد الطبيعى فى تجسد المسـيح هو واحد تماما على الرغم من أن الاتحاد قد تم بين حقيقتين مختلفتين تماما الواحدة عن الأخرى •

— انه اتحاد غير قابل للانفصال •

— اتحاد بدون امتزاج وتغيير فاللاهوت لم يتغير الى ناسوت ولا تغير الناسوت الى لاهوت •

— ان الناسوت لم يكن له كيان ذاتى قبل الاتحاد أى أنه لم تكن هناك ولا لحظة واحدة وجد فيها هذا الناسوت بدون أن يكون جسدا للكلمة •

أما سبب هذا التجسد فهو أمران ·

— افتداء الله البشرية الخاطئة بخطأ آدم •

— إعلان الله نفسه للبشر حتى لا يستحيل عليهم رؤيته ، وأن ما ظهر الله به قبلا من تجليات فى العهد القديم كانت هى التمهيد للتجسد الالهى حتى يؤمن به البشر دون أن يبحثوا فى سر ذلك التجسد وكيفيته لأنه سر من الأسرار التى لا تدركها العقول(١٤) •

وأخيرا يرى « وول ديورانت » أن عقيدة الكلمة دخيلة على المسيحية ولم توجد إلا فى انجيل يوحنا ولم يقل المسيح فى الأناجيـل

(١٤) لعلماء المسلمين ردود كثيرة على عقيدة التجسد والتثليث وكيفيته عند النصارى لم نثبت اثباتها لأن هذا البحث يقوم على المقارنة لا على المجادلة ومن أراد الوقوف عليها فليرجع الى التمهيد للباقلانى ، والجواب الصحيح لابن تيمية والرد على النصارى للجاحظ والفصل لابن حزم ، والرد على النصارى لعلى بن ربن الطبرى والمغنى للقاضى عبد الجبـار والرد على النصارى للقاسم بن ابراهيم الحسنى والمقالات للناشىء الأكبر ونظريات الاسلاميين فى الكلمة لأبى العلا عفيفى وغيرها .

الثلاثة المتشابهة متى ومرقس ولوقا • إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به فقد سأل أحد أتباعه لماذا تدعونى صالحا وليس أحد صالحا إلا واحدا وهو الله ؟ وقال وهو يصلى فى (جشمانى) مناجيا ربه ليكن لا ما أريد بل ما تريد أنت[١٥] •

وبينما يذهب « وول ديورانت » إلى ذلك نرى الباقلانى قد ذهب من قبله — وهو ممن اهتم بالرد على النصارى — الى أن النصارى لم تنقل التثليث فيفسد نقلها وإنما تأولته واستدلت عليه عند أنفسها وضربت للحلول والاتحاد والجوهر والأقانيم الأمثال وغلطت وأخطأت فى اجتهادها وتأويلها[١٦] •

فكأن عقيدة التثليث أو تجسد الكلمة ليست موجودة نصا فى الأناجيل وإنما تأولتها النصارى فهى عملية تأويلية بشرية متأخرة أسقطت على الكتب المقدسة تصورات غريبة عنها •

ومعظم النصارى لا يثبتون لمريم ما يثبتونه لعيسى من الألوهية إذ يرون أنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية وأما قوله تعالى : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله فهو من باب التقريع وتبرئة عيسى مما نسب إليه لأن من مقتضيات كونه إلها أن تكون أمة كذلك ، والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك لا فى حق نفسه ولا فى حق أمهومثل ذلك مثل قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى »[١٧] وهو عز وجل أعلم بذلك من موسى ومثل قوله لأبليس « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك »[١٨] وهو عز وجل أعلم من ابليس بالمنافع كذلك قال للمسيح هل قلت هذا فى نفسك أو فى أمك التى ولدتك وهى أخص الناس بك وأوجبهم حقا عليك وأجلهم عندك ؟ ليبين براءة ساحته عليه السلام من كل وجه •

---

(١٥) قصة الحضارة ١١/٢٠٨ •
(١٦) التمهيد ١٦٥ ، وانظر تثبيت دلائل النبوة ١١٥ ، ١١٦ •
(١٧) طه ١٧ •
(١٨) الأعراف ١٢ •

« التثلـــيث »

يرى النصارى أن « التثليث » هو عقيدة ابراهيم وموسى وسائر الأنبياء فالقول بأن الله ثالث ثلاثة ليس عقيدة النصارى وحدهم وإنما هو العقيدة التى جاء بها ابراهيم وموسى وهارون وسائر الأنبياء .

فالتوراة قد دلت على التثليث فى نظرهم حيث أخبرت عن الله تعالى بصيغة الجمع فى مثل : « نريد أن نخلق بشرا على صورتنا ومثلنا »[1] يقولون هذا خطاب من جماعة أما تسمعونه يقول « نريد » ولم يقل « أريد » أن أخلق بشرا مثلى . وربما يذهبون الى أن القرآن جاء بها أيضا فى مثل قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر »[2] فهو خطاب من جماعة لا من واحد ، وقوله تعالى « فلا أقسم برب المشارق والمغارب »[3] . فهذا أحد الالهة والأرباب يقسم بالأرباب ، وفى قوله تعالى : « ووالد وما ولد »[4] يقسم الاله بنفسه وولده ولذا يقولون أو يقول بعضهم محمد جاء بالنصرانية ولكن أصحابه لم يفهموا عنه .

والتثليث هو القول بالآب والابن والروح القدس حكاه متى فى انجيله عن المسيح عليه السلام إذ قال لتلاميذه : « سيروا فى البلاد وعمروا الناس باسم الآب والابن والروح القدس »[5] ويرى الباقلانى أن هذه العبارة ليست نصا فى التثليث وإنما تأولتها النصارى وغلطت وأخطأت فى هذا التأويل[6] .

---

(١) سفر التكوين ٢٦/١ وقد أورد ابن حزم فى الفصل ١٣٠/١ ، ١٣١ والخزرجى فى مقاطع الصلبان فقرتى ٢٨ ، ١٢٤ ا نموذجا آخر من تأويل النصارى للتوراة .

(٢) القدر ١ .

(٣) المعارج : ٤٠ .

(٤) البلد ١ .

(٥) متى ١٩/٢٨ .

(٦) التمهيد ١٦ .

ولا يعنى التثليث عندهم الايمان بثلاثة الهة متغايرة مختلفة وإنما يرونه « ثلاثة واحد وواحد ثلاثة » وقد شبهوا اتفاق الأقانيم فى الجوهرية واختلافها فى الاقنومية باتفاق الأعراض واختلافها ، وذلك أن البياض والسواد قد يتفقان بأنهما لونان ويختلفان بأنهما سواد وبياض وليس بينهما شىء يخالف بينهما[٧] ، لكن قد يعترض على ذلك بأنه تشبيه مع الفارق لأن الأعرض مختلفة فى ذاتها بينما يقتضى الايمان المسيحى الوحدة الأقنومية •

وسواء أكان هذا التشبيه شائعا أو محدود الانتشار فإن تشبيه النصارى لوحدانية الله وثالوثيته بالشمس والانسان كان معروفا • فمما يذكر فى كتبهم أن هذا الواحد فى الطبيعة ثلاثة فى الأشخاص المفترقة وذلك كالشمس فيما يدرك منها بالحس التى هى شمس واحدة فى كمالها وذاتها وثلاثة متغايرة فى حالها وصفاتها كل واحـد منها غير الآخر فى شخصه وصفته وإن كان هو فى ذاته وطبيعته • فالشمس فى عينها كالأب وضوؤها فيها كالابن وحرها منها كالروح ثم هى بعد وإن كانت لها هذه العدة فشمس ، لا يشك فيها أحـد أنها واحدة لأن الشمس إن فارقها الضوء لم تدع شمسا وكذلك إن فارقها حرها لم تدع أيضا شمسا وإنما تسمى الشمس شمسا وتدعى إذا كان هذا كله فيها مجتمعا •

وكذلك الانسان فإنه وإن كان فى الانسانية فإنا قد نراه وترونه أشياء كثيرة عددا فيها نفسه وجسده وحياته ومنطقه فجسده غير نفسانيته ومنطقه غير حياته لأنه ليس يقدر أحد أن يزعم أن الحياة هى المنطق ولا أنهما جميعا واحد متفق لأن كثيرا من الأحياء لا يتكلم ولا ينطق •

ويقولون ليس المراد بالمنطق القول الذى يسمع سماعا ولكن

---

(٧) الكتاب الأوسط فى المقالات ٨٥ •

المراد به الفكر الذى جعله الله فى الانسان غريزة وطباعا وفطرة خاصة فى الانسان لا فى غيره من الحيوان ... ولو كانت الحياة هى المنطق لكان كل حى من الأشياء ينطق فنطق جميع البهائم كما نطق بنو آدم ، فلما لم يكن الأمر كذلك دل على ما قلنا به من ذلك . فالأب والابن وروح القدس — كان دركهم بعقل أو حس — قد صاروا فى الذات والطبيعة واحدا فردا وفى الأقانيم التى هى الأشخاص ثلاثة عدا[٨] .

وقد اعترض على تشبيه الوحدة والتثليث فى الجوهر والأقانيم بالوحدة والتثليث فى الشمس وحرها وضوئها لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس فإذا قلنا مثلا إن حد الشمس جسم مستدير مضىء مسخن تدور حوله الأرض فإن نورها وحرها لا يحدان بهذا الحد ، ولو كان نورها وحرها شمسا حقا من شمس حق من جوهر الشمس كما قالت الشريعة فى المسيح إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه لكان التشبيه صحيحا ولكنه ليس كذلك .

وقالوا أيضا فى تقريب التثليث الى الأذهان إن ذلك يشبه العشرة الواحدة والآحاد الكثيرة أو الانسان الواحد والأشخاص الكثيرة . فآحاد العشرة متغايرة فى الحقيقة ولكن نصفها بقولنا عشرة ليتبين بهذه الجملة من سائر الأعداد وجملها ونقول واحدة لنبين أنها من هذه الجملة مرة واحدة وليس فى ذلك تناقض . ورد ذلك بأن آحاد العشرة وأبعاض الانســان مختلفة متغايرة وليست كذلك الأقانيم عندهم . لأن القول بأنه جوهر واحد لا يعنى عندهم جملة ذات أقانيم تختص بحكم لبنية حصلت فيها أو ما يجرى مجراها[٩] .

فالمفهوم من عقيدة التثليث عند المسيحيين أنها ليست ذات كثرة رغم تعددها وليست ذات تعدد رغم تكثرها فهى واحدة وكثرة فى آن

---

(٨) رد الحسنى ١٥ .
(٩) المغنى ٥/٨٩ ، ٩٠ .

معا دون انفصال للكثرة عن الوحدة ولا للوحدة عن الكثرة هذا ما يفهم من عقيدة التثليث فى حدود امكانية فهمها طبعا ... وليست كذلك كل الأمثلة المضروبة لها .

ويحاول بعض النصارى أن يثبت مقارنة بين المفهوم الاسلامى لعلاقة الله بصفاته والمفهوم المسيحى لعلاقة الجوهر بالأقانيم يخبرنا بذلك الباقلانى فى تمهيده فيما يناقشهم فيه فى الفقرة التالية .

فإن قال قائل منهم أفليس قد قلتم أنتم فى صفات البـــارى سبحانه إنها ليست بموافقة ولا مخالفة له ؟ فما أنكرتم أيضا أن يكون الجوهر غير موافق للاقانيم ولا مخالف لها ، ويرد الباقلانى على ذلك بأن المسلمين لا يقولون بأن الله موافق لصفاته من جهـــة من الجهات بخلاف النصارى الذين يذهبون الى أن الجوهر موافق للاقانيم بالجوهرية (أى موافق لها بنفسه) ومخالف لها بالقنومية بنفسه فشتان بين قولنا وقولكم[10] .

وقد يذهبون الى أن قولهم بجوهر واحد وثلاثة أقانيم يشبه قول المسلمين « بسم الله الرحمن الرحيم » وهو تشبيه غير صحيح فالله عند المسلمين هو الرحمن وهو الرحيم وهو العالم وهو القادر وهو ذات واحدة له صفات وأسماء كثيرة أما عند النصارى فان الله الوالد ليس هو الابن المولود ولا الابن المولود هو الله الوالد وكذا روح القدس . وهم يقولون فى دعائهم ليتم علينا وعليكم نعمة الرب يسوع المسيح بن مريم ومحبة الله الأب ومشاركة روح القدس أبدا الى دهر الداهرين[11] . مما يدل على أنها متغايرة فى وحدتها متحدة مع تغايرها وهذا المعنى وإن كان عسير الفهم إلا أنه هو المقصـــود بالتثليث الذى لا يعنى ثلاثة الهة مستقلة كما لا يعنى إلها واحدا من كل جهة .

---

(١٠) التمهيد : ٨٤ ، ٨٥ .
(١١) تثبيت دلائل النبوة ٩٢ ، ٩٣ .

فالتثليث تثليث أقانيم وليس تثليث آلهة وإن كان العقل يقرر بأن أحدهما يقتضى الآخر فإن النصارى لا يعتقدون ذلك .

ومريم على مقتضى مذهبهم ليست آلها ولا أقنوما وليست واحدا من الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس . وإن كان فيهم من يقول بألوهيتها فقد جاء فى رسالة نقلها القاضى عبد الجبار كان قد كتبها عن يسوع بن بهرين أسقف حران والرقة والمصير بعد ذلك مطرانا على الموصل والجزيرة إلى قس يعقوبى يقال له بادوس : « أنت لا تنكر أن البتول الطاهرة إله كما تراه أنت بل إنسان كما نراه نحن »[١٢] .

وربما كانت هذه المسألة واحدة من الأسباب التى أدت الى افتراق النساطرة عن الكنيسة الرسمية حين رفضوا اطلاق عبارة أم الله على مريم ولعل ما ذكره القرآن فى قوله تعالى : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى آلهين من دون الله » يشير الى هذا الانحراف فى العقيدة وخاصة عند من يرى أن هذا سيكون يوم القيامة . وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الكلام ورد فى معرض التوبيخ والتقريع لمن انحرفوا عن عقيدة عيسى عليه السلام .

والذى يبدو أن عقيدة التثليث ظهرت متأخرة فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ الذى أقر القول بالتثليث وألوهية المسيح ونزوله ليصلب تكفيرا عن خطأ البشر وقد قضى هذا المجمع على سائر الرسائل والأناجيل التى تعارض ذلك المعتقد ويقرر فى مجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١ أن روح القدس الأقنوم الثالث إله . وتقرر فى مجمع أفسوس عام ٤٣١ أن العذراء مريم هى أم الاله كما قرر هذا المجمع وحدة الأقنوم فى المسيح وأدان النسطورية التى قالت ببشرية المسيح .

---

(١٢) السابق ١٤٥ ، ١٤٦ .

ومن المرجح عند باحثى النصارى أن أول من أدخل عقيـدة التثليث فى المسيحية هو بولس[١٣] الذى كان قبيل ايمانه بالمسيحية يهوديا فخورا بشعبه وفريسيا مثاليا[١٤] وعـدوا لدودا للكنيسـة الناشئة[١٥] • وعندما كان بولس فى مهمة رسمية ضد المسيحيين خارج فلسطين مر وهو فى طريق دمشق بأزمة دينية عنيفة — لا يتحدث عنها إلا تلميحا ولكن كتاب الأعمال يبسطها فى ثلاث مناسبات[١٦] — انتهت بإيمانه بالمسيحية إثر رؤيا رأى فيها عيسى يلومه على اضطهاد أتباعه فوجد فيها برهانا على خطئه وتحول بعدها من فريسى ابن فريسى إلى رسول الأمم •

وكان دخوله المسحية هو الحاجز بين المسيحية الموحدة والمسيحية القائلة بالتثليث ويتهمه بعض المسيحين بأنه دخل المسيحية ليفسدها وادعاها تضليلا ليتسنى له القضاء على الحواريين بما نسبه إليهم من الأقوال التى لا تتفق مع توحيد المسيح يقول قائلهم : « لقد شوه بولس نعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوبا برأسه إلى أسفل[١٧] •

فهو المسئول الرئيسى عن ابتعاد النصارى عن الدين القويم — اتسم سلوكه عندهم بالنفاق والانتهازية كان يمدح التوراة لليهـود ويقول لهم إنها سنة حسنة لمن عمل بها ويذمها الروم وغيرهم من أعداء موسى والأنبياء مدعيا أنها مهيجة البشر وأن وضع شرائعها عن الناس به « كمل بر الله وتم فضله » وقد اعترف هو نفسه بذلك حين

---

(١٣) ولد فى بداية القرن الميلادى الأول فى طرسوس من مقاطعة قيليقية Gilicie بآسيا الصغرى وكان ينتسب الى أسرة يهودية تدعى انها من سلالة سبط بنيامين التى انجبت الملك شاول •

(١٤) رسالة بولس الى اهل فيلبى ٣/٥ •

(١٥) رسالة بولس الى اهل اغلاطية ١٣/١ — ١٤ •

(١٦) أعمال الرسل ٢٢/٩ — ٢٦ •

(١٧) مذكرات شارلى شابلن ١٢٥/٢ ترجمة صلاح حافظ ، طبعة دار الهلال •

صرح : « كنت مع اليهودى يهوديا ومع الرومى روميا ومع الأرمانى أرمانيا »[١٨] ولكنه عند المسيحيين الآن أجل من موسى وهارون وداود وجميع الأنبياء وإذا قرئت رسائله وكلامه فى البيعة أو الكنيسة نهضوا قائمين اعظاما وإجلالا له ولكلامه .

ولم تجد آراؤه الجديدة التى أدخلها على المسيحية وخاصة عقيدة التثليث فى بادىء الأمر صدى واسعا خارج الحلقة الضيقة من المريدين الذين اتصل بهم ولم تجد معتقداته قبولا إلا بانتشار رسائله من بعده فقد كان موقف الكثيرين من معاصريه يتسم بالاحتراز منها ويراها موضع شبهة[١٩] ، ولذلك فإن النصارى لم يعرفوا عبارة الثالوث قبل نهاية القرن الثانى وأقدم استعمال لها كان عند ثيوفيلس Théophile الانطاكى فى كتابه الى أوتو ليكوس A Autolycos .

وقد ثار جدل عنيف بين النصارى حول اعتبار روح القـدس إلها يعبر عنه نيموثاوس بطريرك الاسكندرية فى قوله : « ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح الله شيئا غير حياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوقا فقد قلنا إن حياته مخلوقة وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حى وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعن[٢٠] .

وهكذا استمر النزاع حول التثليث مدة طويلة الى أن استقر أمره عند أكثر المسيحيين . ولعل الحق تعالى عندما يثنى على بعض النصارى

والأوثان قارن برسالة بولس الأولى الى الكورنثيين ١٩/٩ — ٢٢ .

(١٨) تثبيت دلائل النبوة ١٥٠ ، ١٥١ والأرمانى من يعبد الكواكب

(١٩) انظر نموذجا لهذه المواقف المحترزة فى رسالة بطرس الثانية ١٥/٣ — ١٦ .

(٢٠) نقلا عن كتـاب محاضرات فى النصرانية للشـيخ محمـد ابو زهرة ١٤١ .

فى قوله : « منهم أمة مقتصدة »[٢١] وقوله : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين • وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين »[٢٢] لعله يقصد هؤلاء وكانت منهم طائفة تسمى « الأريوسية » ظهرت عبر التاريخ وفية للتوحيد اليهودى • ولكن هؤلاء كانوا قلة •

---

(٢١) المـــائدة ٦٦ •

(٢٢) المائدة ٨٢ — ٨٥ •

الصـــلب وتوابعـه

رغبة الله الآب فى فداء الجنس البشرى من الخطيئة التى ارتكبها آدم بأكله من الشجرة التى نهى عن الأكل منها كانت السبب فى صلب عيسى وقتله عند النصارى ليمحو الله بدم ابنه الوحيد خطيئة البشرية ويكفر عنها • جاء فى قانون نيقية · « من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم البتو لوصار إنسانا ••• » • وأخذ وصلب وقتل أمام بيلاطس ومات ودفن وقام فى اليوم الثالث كما هو مكتوب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء •

وفى مقابل ذلك كانت مؤاخذة القرآن لليهود على كفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله والتأكيد إثرها مباشرة بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه »[١] منطلقا لإنكار المسلمين أن يكون عيسى قتل وصلب لا على أيدى اليهود ولا على أيدى غيرهم ومن الطبيعى ألا تجد عقيدة الفداء مجالا مع نفى الصلب والبنوة الالهية معا لا سيما وأن الله تعالى قد تاب على آدم من جهة : « فتـــلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »[٢] وأنه لا معنى لارث أبنائه خطيئة لم يرتكبوها من جهة أخرى حيث « لا تزر وازرة وزر أخرى »[٣] •

نحن إذن أمام موقفين على طرفى نقيض ولا سبيل إلى التوفيق بينهما كما أنهما يتسمان بقدر كاف من الوضوح يغنينا عن مزيد من الشرح والتفصيل •

---

(١) النساء ١٥٦ — ١٥٨ .

(٢) البقرة ٣٧ .

(٣) الأنعام ١٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨ .

وتتفاوت الأخبار في ذكر قصة الصلب والقتل فيذكر بعضها أن الشرط أخذوا إكليلا من أرجوان فوضعوه على رأس عيسى وجعلوا يضربونه ثم أخرجوه وعليه ذلك الإكليل فقال رؤساء الكهنة لفيلاطوس اصلبه • فقال لهم : خذوه أنتم فاصلبوه فأما أنا فلم أجد عليه علة • فقالوا : قد وجب عليه الصلب والقتل من أجل أنه قال : انه ابن الله ثم أخرجه فقال لهم : خذوه أنتم فاصلبوه ! فأخذوا المسيح وأخرجوه وحملوه الخشبة التى صلبوه عليها •

هذا فى إنجيل يوحنا فأما متى ومرقس ولوقا فيذكرون أنهم قد وضعوا الخشبة التى صلب عليها المسيح على عنق رجل قرنائى وصاروا به إلى موضع يدعى « الجمجمة » ويسمى بالعبرانية (ايما خاله) وهو الموضع الذى صلب فيه وصلب معه أثنان آخران واحد من هذا الجانب والآخر من هذا الجانب وكتب « فيلاطوس » فى لوح : هذا يسوع الناصرى ملك اليهود فقال له رؤساء الكهنة : اكتب الذى قال : إنه ملك اليهود فقال لهم : ما كتبت قد كتبت •

ثم إن الشرط اقتسموا ثياب المسيح وكانت أمه مريم ومريم بنت تلوفا ومريم المجدلانية قياما ينظرون إليه فكلم أمه من فوق الخشبة وجعل أولئك الشرط يأخذون اسفنجة فيها خل يقربونها إلى أنفه فيتكرهها ثم أسلم روحه فجاءوا إلى ذينك المصلوبين معه وكسروا سوقهما وأخذ واحد من الشرط حربة فطعنه فى جنبه فخرج دم وماء •

ثم كلم فيه أحد التلاميذ فيلاطوس حتى أنزله وأخذ حنوطا من مر وصبر ولفه فى ثياب كتان وطيب فكان فى ذلك الموضع جنان وفيه قبر جديد فوضعوا المسيح فيه وكان ذلك يوم الجمعة[٤] •

وتذكر رواية ثالثة إن فيلاطوس الروحى ملك الروم أخذ المسيح بتظلم اليهود منه وسلمه إليهم فحملوه على حمار وجعلوا وجهه إلى

---

(٤) تاريخ اليعقوبى ١/٧٧ — ٧٨ .

عجز الحمار وجعلوا على رأسه إكليل شوك وطوفوا به تنفيلا وأنهم كانوا يقذفونه من ورائه ويأتونه من تلقاء وجهه فيقولون له يا ملك بنى إسرائيل من صنع هذا بك ؟ سخرية منه ، وأنه لما ناله من الكد والشقاء عطش واستجدى وقال لهم اسقونى ماء فأخذوا الشجر المر واعتصروه وجعلوا الخل فى ذلك العصير وأعطوه فأخذه وهو يظنه ماء فعب فيه فلما وجد مرارته مجه فسعطوه به وعذبوه يومه وليلته فلما كان من الغد وهو يوم الجمعة سألوا فيلاطوس ضربه بالسوط فضربه ثم أخذوه وصلبوه وطعنوه بالرماح ، وما زال يصيح وهو مصلوب على خشبته : يا إلهى لم خذلتنى ، يا إلهى لم تركتنى إلى أن مـات ونزلوا به ودفنوه[٥] .

وثمة روايات وقصص أخرى كثيرة تختلف قربا وبعدا وإيجازا وتفصيلا ولكنها تتفق على أن عيسى علق على الصلب حتى مات وأنه عانى آلام الصلب وصرخ صرخة انشق لها جدار الهيكل وأنه مات وتوسط بعض الناس أن يدفن فدفن ، وفى اليوم التالى وجدت مقبرته مفتوحة ولم يوجد بها جسده ثم حضر بعد ذلك وقابل تلاميذه وودعهم ثم ارتفع إلى السـماء .

ومع اتفاقهم على الصلب والقتل فإنهم اختلفوا فيهما على أى جانب وقعا فذهبت النسطورية إلى أن ذلك وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وذهبت أكثر الملكانية أن ذلك وقع عـلى المسيح بكماله والمسيح هو اللاهوت والناسوت بينما ذهبت أكثـر اليعقوبية إلى أن الصلب والقتل وقعا فى الجوهر الواحد الكائن من الجوهرين اللذين هما الاله والانسان وهو المسيح على الحقيقة وهو الاله وبه حلت الآلام .

وهذا الاختلاف امتداد للاختلاف بينهم فى طبيعة المسيح وتجسد

---

(٥) تثبيت دلائل النبوة ١٢١ ، ١٢٥ .

الكلمة به وعقيدة التثليث مما جعل بعضهم يتندر عليهم بأنهم يجهلون طبيعة المسيح ربهم !!

ويعلق الناشىء الأكبر على اختلاف النصارى حول الجهة التى وقع عليها القتل بأن الخلاف ليس بشىء لأن المهم أن البارى نفسه قد مات بجهة من الجهات فما يبالى أكانت تلك الجهة جهة ناسوته أو جهة غير ناسوته إذ كان هو نفسه الذى مات وقد نعلم أن جميع ما يموت فليس يموت من كل جهة لأنه ليس يموت بأن يذهب لونه ولا بأن ينتقص جسمه • من وجوه كثيرة لا يموت وإنما يموت من الجهة التى يفقد منها فليس لاستثناء الجهات فى الشىء إذا مات وجه إذ كان ليس بمزيل عنه أن يكون قد مات(٦) •

وأيا ما يكن فإن عقيدة النصارى لا تقف عند القتل والصلب بل تضيف إلى ذلك قيامة المسيح ويجعلون من قيامته عقيدة ومن يومها عيدا • يقول بولس فى رسالته الأولى : « إن كان المسيح لم يقم فكرازتنا إذن باطلة وايمانكم أيضا باطل »(٧) •

ويلخص اليعقوبى ما ورد فى الأناجيل فى تلك العقيدة تلخيصا أمينا فيقول : « فلما كان يوم الأحد بكرت مريم المجدلية إلى القبر فلم تجده فجاءت شمعان الصفا وأصحابه فأخبرتهم أنه ليس فى القبر فمضوا فلم يجدوه وجاءت مرة ثانية إلى القبر فرأت فى القبر رجلين عليهما ثياب بياض فقالا لها لا تبكى ثم التفتت خلفها فرأت المسيح وكلمها وقال لها : لا تدنين إلى لأنى لم أصعد إلى أبى ولكن انطلقى إلى اخوتى وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم والهى والهكم ، وإنه لما كان عشية الأحد جاءهم وقال لهم : السلام عليكم • كما أرسلنى أبى كذلك أرسلكم وإن غفرتم ذنوب أحد فهى مغفورة ،

---

(٦) الكتاب الأوسط فى المقالات ٨٣ ، ٨٤ •

(٧) رسالة بولس الأولى الى الكورنثيين ١٥/١٤ •

فقالوا هذا الذى يكلمنا روح وخيال ! قال لهم : انظروا إلى آثار المسامير بأصبعى وإلى جانبى الأيمن ثم قال لهم : طوبى للذين لم يرونى وصدقوا بى . وجاءوه بقطعة سمك فأكل وقال لهم : إن أنتم صدقتم بى وفعلتم فعلى يحق ألا تضعوا أيديكم على مريض إلا برىء ولا يضره الموت ثم ارتفع عنهم »[٨] .

أما الطبرى فيروى حديث القيامة على نحو آخر عندما يذكر أن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه وقال له اهبط وانزل على مريم المجدلانية فى جبلها فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله فإنك لم تكن فعلت ذلك . فأهبطه الله عليها فأشتعل الجبل حين هبط نورا فجمعت له الحواريين فبثهم وأمرهم أن يبلغوا الناس عنه ما أمره به الله ثم رفعه إليه فكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار فى الملائكة وهو معهم حول العرش فكان انسيا ملكيا سماويا أرضيا وتفرق الحواريون حيث أمرهم[٩] .

ورواية اليعقوبى أقرب إلى اعتقاد النصارى من رواية الطبرى الذى أراد أن يفرغ القيامة عند النصارى من مضمونها وأن يكسوها ثوبا إسلاميا .

أما المسلمون فيوردون روايات أخرى عن الصلب والقتل يثبتون فيها أن الذى صلب وقتل ليس هو المسيح وإنما شخص ألقى عليه شبهه لأن المسيح نفسه قد رفع كما أخبر بذلك القرآن الكريم .

وخلو القرآن من الحديث عن الوقائع الدالة بنهاية عيسى حدا

---

(٨) تاريخ اليعقوبى ٧٨/١ ، ١٠٩ .
(٩) تاريخ الطبرى ٦٠٢/١ ، ٦٠٣ .

ببعض المؤرخين المسلمين إلى الرجوع فيها إلى الروايات المسيحية لكن بطريقة توفق بينها وبين نفى الصلب .

يذكر الطبرى فى تاريخه باسناده الى وهب بن منبه بعد أن قص ما دار بين عيسى والحواريين « لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا .. فلما أصبح أتى أحد الحواريين الى اليهود فقال ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذوها ودلهم عليه — وكان شبه عليهم قبل ذلك — فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل فجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيى الموتى وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون أفلا تفتح نفسك من هذا الحبل ! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعا[١٠] .

ولكن السذاجة تبدو على هذه الرواية التلفيقية التى تجعل القارىء فى حيرة من الأمر هل عيسى هو الذى أهين إلى حين رفعه أم غيره وكيف شبه لليهود أو عليهم ومن هو المصلوب .

ويمكن أن نعثر على أجوبة لهذه التساؤلات فى الأخبار التى دونها الطبرى فى تفسيره وبالخصوص عند تفسير آيات آل عمران والنساء والصف[١١] وهى تعود فى نهاية الأمر إلى روايتين أساسيتين تختلفان فى أمر إلقاء الشبه على حوارى واحد أو على جميع الحواريين .

الرواية الأولى عن ابن عباس وابن إسحاق والسدى وابن جريج ومجاهد وقتادة أن بنى اسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا[١٢]

---

(١٠) تاريخ الطبرى ٦٠١/١ .

(١١) آية ٥٤ ، ٥٥ من آل عمران ، ١٥٧ من النساء ، ١٤ من الصف .

(١٢) هناك اختلاف فى عدد المحصورين مع عيسى يتراوح ما بين اثنى عشر وتسعة عشر رجلا .

من الحواريين فى بيت فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ؟ فأخذها رجل منهم وصعد عيسى إلى السماء فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر رجلا فأخبروهم أن عيسى قد صعد به إلى السماء فجعلوا يعدون القوم فيجدونهم ينقصون رجلا من العدة ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه(١٣) .

والطبرى لا يرجح هذا القول ويميل الى الرواية الثانية عن وهب ابن منبه : لما أحاطت اليهود به وبأصحابه أحاطوا بهم وهم لا يثبتون معرفة عيسى بعينه وذلك أنهم جميعا حولوا فى صورة عيسى فأشكل على الذين كانوا يريدون قتل عيسى من غيره منهم وخرج اليهم بعض من كان فى البيت مع عيسى فقتلوه وهم يحسبونه عيسى(١٤) .

وثم خبر آخر مرفوع الى ابن عباس يوضح أنه لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج الى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من سيكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى . قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . قال : نعم أنت ذاك قال : فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت الى السماء . قال وجاء الطلب من اليهود وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه(١٥) .

والخبر المروى عن ابن اسحاق يذكر أسماء الحواريين ويعتبر أن سرجس هو الذى تطوع ليصلب مكان عيسى ، وأن يهوذا الأسخريوطى هو الذى دلهم عليه مقابل ثلاثين درهما ثم ندم على ما صنع فأختنق

---

(١٣) تفسير الطبرى ٢٨٦/٣ وانظر كذلك ١٤/٦ — ١٥ ، ٩٢/٢٨ .
(١٤) السابق ١٢/٦ .
(١٥) السابق ١٢/٦ .

بحبل حتى قتل نفسه كما يروى ابن إسحاق أن بعض النصارى يزعم أن « يودس زكريا يوطا »[١٦] هو الذى شبه لهم فصلبوه وهو يقول : « إنى لست بصاحبكم أنا الذى دللتكم عليه »[١٧] •

وأيا ما يكن من أمر محاولة القتل والصلب والقاء الشبه فإن عيسى عليه السلام — عند المسلمين — نجا من القتل والصلب ورفع إلى السماء وقد جاء ذلك فى آيتين فى القرآن الكريم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وما قتلوه يقينا •••• بل رفعه الله إليه » والآية الثانية : « إنى متوفيك ورافعك إلى » ولئن كان النص حاسما فى نفى القتل والصلب فانه ليس كذلك تجاه الرفع كما يرى بعض العلماء لأن القرآن استعمل الرفع لرفع المكانة فى مثل قوله تعالى فى حق إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا » وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فالرفع هنا بمعنى القبول وإجزال الثواب •

واختلف المسلمون أيضا فى وفاة عيسى : « إنى متوفيك ورافعك إلى » فقال بعضهم هى وفاة نوم وقال آخرون : المراد إنى قابضك من الأرض فرافعك إلى فيكون شأن عيسى كشأن إدريس الذى لم يرفع ولم يمت وذهبت طائفة ثالثة إلى أن المقصود بقوله إنى متوفيك وفاة موت ويستندون فى ذلك إلى ما روى عن ابن عباس ووهب بن منبه من أن الله توفى عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه • وترى

---

(١٦) المقصود به يهوذا الاسخريوطى •

(١٧) تفسير الطبرى ١٤/٦ ، ١٥ هذا ورغم انكار المسلمين لنهاية عيسى المأساوية فى الصلب والقتل فان ذلك لم يمنع اللاشعور الجماعى من الاحتفاظ بانموذج الصلب الذى رسمته الأناجيل فبرزت ملامحه بصفة خاصة فى بعض الروايات التى سجلت مأساة الحلاج على نفس النمط الذى دون به النصارى محنة عيسى انظر مثلا رواية ابن خفيف لصلب الحلاج فى :
Massignan Textes Inedits p. 64 — 63.

طائفة رابعة أن الرفع سابق للوفاة التى ستكون بعد نزول عيسى فى آخر الزمان وقتله الأعور الدجال[١٨] .

ونزوله آخر الزمان لم يتحدث عنه القرآن وإنما جاء فى السنة النبوية وأنه عليه السلام ينزل داعيا الى الخير عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأن نزوله علامة من علامات الساعة ، ولكن البعض يشكك فى الأحاديث الواردة بنزول عيسى وأنها وضعت فى الأوساط السنية كرد فعل إزاء اعتقاد الشيعة فى المهدى المنتظر . غير أننا نعرف أن انتظار عودة المسيح إلى الأرض قد عرف عند المسلمين سنة وشيعة قبل ظهور عقيدة المهدى المنتظر[١٩] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليتزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن اقلاص [جمع قلوص وهى الناقة الشابة] فلا يسعى إليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى الماء فلا يقبله أحد » . وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم : « قال : والذى نفسى بيده ليهان ابن آدم بفج الروحاء [طريق بين مكة والمدينة كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام الحج][٢٠] حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما ولا ينزل بشرع مبتدأ فينسخ شريعتنا بل ينزل مجددا لما درس منها متبعها كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١٨) تفسير الطبرى ١٦/٩٦ ، ٣/٢٨٩ — ٢٩١ .

(١٩) يدل على ذلك مثلا ما اثبته المقدسى فى احسن التقاسيم ص ٨١ « وقد اختلف الناس فى ترتيب قبر النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه : فى رواية : النبى ومن ورائه أبو بكر ومن ورائه عمر وفى رواية مالك بن أنس : النبى غربى البيت ازاءه فضاء خلف النبى أبو بكر ، خلف الفضاء عمر ، والفضاء هو الذى ذكر لعمر بن عبد العزيز فلم ير نفسه له أهلا ويقال : فيه يقبر عيسى عليه السلام .

(٢٠) انظر معجم ياقوت .

كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم . وفى رواية « فأمكم منكم » قال ابن أبى ذؤيب : تدرى ما أمكم منكم ؟ قالت تخبرنى . قال : فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم[٢١] .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها »[٢٢] إنه خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء أخــوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم انه ليس بينى وبينه نبى وانه أول نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الاسلام »[٢٣] .

وفى صحيح مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليزلن عيسى بن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى اليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ويدعون إلى المال فلا يقبله أحــد .

---

(٢١) تفسير القرطبى ١٠١/٤ .
(٢٢) الزخرف ٦١ .
(٢٣) تفسير القرطبى ١٠٦/١٦ .

« الانجيـــــل »

عنـد المســـلمين

الانطباع الذى يخرج به القارى المسلم للقرآن هو أن هنـــاك تماثلا كاملا بين الانجيل والقرآن من حيث أن كلا منهما رسالة من الله أوحى بها إلى رسوله كى يبلغها إلى الناس ويدعوهم إلى الحكم بما فيها « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[١] .

وقد نصت آيتان من جملة اثنتى عشرة آية ورد فيها ذكر الانجيل على أن عيسى أوتى إياه : الأولى : قوله تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين »[٢] ، والثانية وصفت هذا الذى أوتيه بالبينات « وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »[٣] .

ولم تثر هذه الفكرة عن الانجيل أية مشكلة فى ذهن المسلمين الأول ما دام القرآن عنوانا على التعاليم التى أوحى بها الى الرسول طيلة أكثر من عشرين سنة ولكن ما إن دون القرآن فى مصحف واحد رسمى خشية أن يختلفوا فيه اختلاف اليهود والنصارى[٤] حتى أصبح الفارق بينه وبين التوراة والانجيل بارزا للعيان ولم تزده الأيام إلا اتساعا .

فالانجيل الذى تحدث عنه القرآن الكريم غير الأناجيل التى عند النصارى لأن انجيل القرآن وتوراته أيضا لا يختلفان عن القرآن فى

---

(١) المائدة ٤٧ وانظر الآية ٦٦ ، ٦٨ من نفس السورة وكلتاهما تدعو النصارى الى اقامة التوراة والانجيل والعمل بهما .

(٢) المائدة ٤٦ وانظر الحديد ٢٧ .

(٣) مريم ٣ .

(٤) صحيح البخارى ٦/٢٢٦ ، الفهرست ٢٧ .

شيء إلا يسيرا فى بعض التشريعات فأم الكتاب أو اللوح المحفوظ هو أصل لها جميعا . أما أناجيلهم التى بين أيديهم فهى من وضع أصحابها فيما علموه أو استوحوه من انجيل عيسى الذى لا وجود له لأنه لم يكتب .

وأقدم ترجمة عربية للانجيل ظهرت فى بطريركية انطاكية ونقلت إلى بطريركية القدس المجاورة قبل حرب هرقل الفرس ، وربما وجدت إلى جانب ذلك ترجمة للاناجيل من زمن الجاهلية نقلت عن الأرامية الفلسطينية[٥] فقد أخبر صاحب الأغانى أن ورقة بن نوفل كان يكتب نسخا من الأناجيل[٦] .

وجاء فى صحيح البخارى · وكان « ورقة » امرؤا تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وفى موضع آخر : وكان امرؤا تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى فيكتب بالعربية من الانجيل ما شاء الله أن يكتب[٧] .

كما ذكر أبو الفرج بن العبرى أن البطريرك اليعقوبى يوحنـا الثالث قد قام بترجمة الانجيل الى العربية بين سنتى ١٠/٦٢١ ، ٦٠/٢١ بأمر من عمرو بن العاص[٨] . لكن لعل أقدم نص وصـلنا هو الذى أثبته ابن هشام ت ٢١٨ فى السيرة عن انجيل يوحنا ، ونعرف أن ابن هشام لم يكن فى الحقيقة إلا ملخصا لسيرة ابن اسـحاق ت ١٥٠ .

وعرفت نسخ من القرنين الثانى والثالث لأناجيل مترجمة الى العربية من اليونانية مباشرة وأخرى من السريانية وكذلك قطع من أناجيل

---

(٥) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ٤/٩٠ هامش ٢ .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية فصل انجيل ١٢٣٦ الطبعة الثانية .
(٧) ٣/١ ، ٣٨/٩ على التوالى .
(٨) دائرة المعارف الاسلامية فصل انجيل .

مترجمة من القبطية يعود تاريخها الى القرن الرابع وأثبت الجاحظ وابن قتيبة فى آثارهما الأدبية نصوصا يمكن ارجاع أكثرها الى مصادرها الانجيلية .

ويعرفنا على بن ربن الطبرى[٩] بمحتويات الانجيل وأهم الأسفار التى يحتوى عليها الكتاب المقدس . فيقول عن التوراة : ونجد عامتها فى انساب بنى اسرائيل ومسيرها فى مصر وحطها وترحالها وأسماء المنازل التى نزلوها وفيها مع ذاك سنن وشرائع تبهر العقول ويعجز عنها حول الرجال وطاقتهم ، ويقول عن الزبور : وأما الزبور ففيه أخبار وتسابيح ومزامير بارعة الحسن فائقة الحلاوة وليس فيها شىء من السنن والشرائع ، وعن كتب الأنبياء يقول : وأما كتاب أشعيا وأرميا وغيرهما من الأنبياء فجلها لعن لبنى اسرائيل وبشارات بالخزى المعد لهم وإزالة النعم منهم وإنزال النقم والسطوات بهم . ويتحدث عن الانجيل بصيغة المفرد فيقول : وأما الانجيل الذى فى أيدى النصارى فإن جله خبر المسيح ومولده وتصرفه وآداب مع ذلك حسنة ومواعظ كريمة وحكم جسيمة وأمثال رائعة وليس فيه من السنن والشرائع والأخبار إلا اليسير القليل .

والقرآن بجمع التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل والتصديق بالرسل والانبياء والحث على الصالحات الباقيات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والترغيب فى الجنة والترهيب من النار ... وله من القلوب هذا المحل والجلالة والحلاوة بحيث فاقها من جميع الأوجه واشتمل على ما اختص به كل واحد منها .

أما أبو الحسن العامرى فقد اهتم بالتعريف بمحتويات العهد الجديد فقط مبرزا بالخصوص اشتمال رسائل بولس على ما يخالف الأناجيل فقال : «أما الأناجيل الأربعة التى كتبها تلاميذ المسيح

---

(٩) الدين والدولة ٤٥ ، ٤٦ .

أعنى متى ولوقا ومرقس ويوحنا فهى تشمل على أخبار المسيح عليه السلام وما جرت عليه أحواله من لدن مولده الى آخر أيامه مقرونا بذكر ما سمعوه من مواعظه وأمثاله وثنائه على الله تعالى جده وتسابيحه ثم لا يزيد عليه • ولقد صنف شمعون الصفا بعده كتابا غير أنه لم يودعه إلا أخبار تلامذة المسيح وما تصرفت عليه أحوالهم ثم تلاه فى التصنيف بولس وسمى كتابه « السليخ » وهو مشتمل على ما يخالف من الأشياء مخالفة ظاهرة وكل ما عدا هذين الكتابين من كتب النصارى فليس يزيد على الأناجيل الأربعة شيئا[١٠] •

ويذهب الحسن بن أيوب الذى كان نصرانيا وأسلم الى أن النصارى قد أحرقوا أسفار المسيح •

على أن من الواضح أن أخطر ما وقع فيه النصارى من التحريف كان على سبيل التأويل الفاسد لما جاء فى كتبهم بالوهية المسيح •

وسواء أكان التحريف تحريف نص أم تحريف تأويل فإن كاتبى هذه الأناجيل ليس أحد من خاصتهم ولا عامتهم عند النصارى بعدل ولا محمود ولا تقبل شهادته على يهودى مثله فكيف تقبل شهادتهم على الله تعالى وعلى رسله فى نظر الحسن بن أيوب[١١] •

وكذلك الأمر عند الجاحظ عندما يؤكد أنه ليس هناك ما يمنع أن يقول لوقا — وهو ليس من الحواريين — باطلا وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة[١٢] •

---

(١٠) الاعلام بمناقب الاسلام ٢٠٧ ، ٢٠٨ •

(١١) الجواب الصحيح ٢/٣٣١ ، ٣٦٣ •

(١٢) رد الجاحظ ٢٤ ولكن نرى أنه ليس من الانصاف ان يذهب الجاحظ الى ذلك أو أن نوافق عليه وأن نلصق تهمة الكذب والتحريف ببعض كاتبى الاناجيل بسبب أنهم كانوا قبل ذلك يهودا ونحن نعرف أن عيسى عليه السلام ارسل الى بنى اسرائيل ونعرف أن اصحاب كل نبى كانوا على وثنية وضلال قبل مجيئه . فلينح هذا السبب وليبحث عن أسباب أخرى غيره •

وقد أخذ القاضى عبد الجبار هذه الفكرة وزادها قليلا فيذكر أنه « عند هؤلاء الطوائف من النصارى أن هؤلاء الأربعة أصحاب المسيح وتلاميذه ، وهم لا يعلمون ولا يدرون من هم ولا معهم فى ذلك إلا الدعوى فقط ، بل قد ذكر لوقا فى انجيله أنه ما رأى المسيح قط فقال لوقا مخاطبا الذى عمل له انجيله[١٣] — وهو آخر من عمل من الأربعة — عرفت رغبتك فى الخير والعلم والأدب فعملت هذا الانجيل لمعرفتى ولأنى كنت قريبا الى الذين خدموا الكلمة ورأوها[١٤] .

فهو قبل كل شىء قد أفصح بأنه ما رأى الكلمة (المسيح) ثم ادعى أنه رأى من رأى المسيح ، وليس ها هنا إلا دعوى بأنه رآهم ولو كان ثقة لما علم بخبره شىء ومع ذلك فقد ذكر أن انجيله أولى من انجيل غيره . فلو تأمل النصارى لعلموا أنهم ليسوا على شىء من هذه الأناجيل التى معهم ولا معهم علم مما يدعيه أربابها والواضعون لها[١٥] .

ولم يوجه النقد الى لوقا فحسب وإنما طعن فى الانجيليين الأربعة نظرا بالخصوص للاختلافات الموجودة بينهم .

ويرد الجاحظ على الذين يعترضون بأن أصحاب الأناجيل كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا وأحفظ من أن ينسوا شيئا وأعلى من أن يغلطوا فى دين الله تعالى أو يضيعوا عهدا بقوله : « إن اختلاف رواياتهم فى الانجيل وتضاد معانى كتبهم واختلافهم فى نفس المسيح مع اختلاف شرائعهم دليل على صحة قولنا فيهم وغفلتكم عنهم »[١٦] .

ونجد فى التثليث تفصيلا لما جاء مجملا فى رد الجاحظ على النحو التالى :

---

(١٣) يقصد « تاوفيلس » .
(١٤) لوقا ١/١ — ٤ .
(١٥) تثبيت دلائل النبوة ١٥٥ .
(١٦) رد الجاحظ ٢٤ .

« واعلم رحمك الله أن هذه الطوائف الثلاث من النصارى لا تعتقد أن الله أنزل على المسيح انجيلا ولا كتابا بوجه من الوجوه ... وإنما معهم أربعة أناجيل لأربعة نفر كتب كل واحد منهم انجيله فى زمانه وجاء من بعده فما رضى انجيل غيره وكان انجيله أولى ، وهم يتفقون فى مواضع ويختلفون فى مواضع وفى بعضها ما ليس فى بعض ، وهى حكايات قوم رجال ونساء من اليهود والروم وغيرهم أنهم قالوا كذا وفعلوا كذا ، وفيها من المحال والباطل والسخف والكذب الظاهر والتناقض البين شىء كثير وقد تتبعه الناس وأفردوه وإذا قرأه المتأمل عرف ذلك . وفيها شىء من كلام المسيح ووصاياه وأخباره قليل .

فانجيل منها عمله يوحنا وانجيل منها عمله متى ثم جاء بعدهما مرقس فما رضى بانجيلهما ثم جاء بعدهم لوقا فما رضى بتلك الأناجيل فعمل انجيلا آخر وكان عند كل واحد من هؤلاء أن صاحبه الذى تقدم وعمل انجيلا قد ضبط أشياء وأخل بأشياء وغيره أعرف وأضبط ، ولو كان من قبله قد ضبط وأصاب لما احتاج أن يعمل هو انجيلا آخر غير انجيل صاحبه ، وليس أحد هذه الأناجيل شرحا للآخر كما يشرح من تأخر كتاب من تقدم فيحكى كلامه على وجهه ثم يشرحه[١٧] .

فهو يعرض عرضا مجملا للعملية التى أدت إلى وضع الأناجيل الأربعة كما يوضح أن الاختلاف بين الاناجيل ليس مضطردا وأنه يوجد إلى جانبه اتفاق بينها فى مواضع واختلافها ليس يعنى دائما التناقض وانما قد يكون بأن يرد فى بعضها ما ليس فى بعض ومن الطريف ما لاحظه القاضى عبد الجبار من أن الأناجيل لا يشرح بعضها بعضا وإنما هى روايات متوازنة .

ولكن ما أثبته من أن « النصارى لا تعتقد أن الله أنزل على

---

(١٧) تثبيت دلائل النبوة ١٢٤ ، ١٢٥ .

المسيح انجيلا ولا كتابا بوجه من الوجوه » هو فى الحقيقة محور الخلاف الاسلامى المسيحى لكلام الله •

فالأناجيل ليست وحيا ولا كلاما إلهيا وما هى إلا تدوين لشهادات الأجيال الأولى من أتباع نبى الناصرة وللتأويلات الناشئة فى أوساطهم قبل أن تضفى عليها صفة القداسة بمرور الزمن ، والعقائد المسيحية خاصة منها ما يتعلق بشخص عيسى عليه السلام سابقة لوضع الأناجيل • بينما القرآن هو المنطلق والمرجع فى العقائد الاسلامية واعتبارا لظروف تدوينه وحرص الجيل الاسلامى الأول على ألا يختلف فيه فإن صفته ككلام الهى لم تكن البتة محل أخذ ورد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[١٨] •

وقد أشار القاضى فى النص السابق عرضا بقوله : « وقد تتبعه الناس وأفردوه الى وجود مؤلفات اسلامية سابقة خصصت لبيان مظاهر التحريف التى فى كتب النصارى •

والخلاصة أن الأناجيل ليست سوى عمل بشرى قام به فريق من النصارى الموالين للروم دون موافقة الأوفياء منهم للانجيل الصحيح مما أدى الى فوات الانجيل الأصل وتعدد الكتب التى عوضته[١٩] •

ولعل هذا كان صدى للخصومة التى اندلعت فى وقت مبكر فى تاريخ المسيحية بين اليهود والمتنصرين من جهة والوثنين المتنصرين من جهة أخرى وخاصة حول الاشتراك فى الطعام ومسألة الطهارة الطقسية •

وقد تتبع كل من ابن حزم ٤٥٦ فى كتابه الفصل والجوينى ٤٦٨ فى كتابه شفاء الغليل مواطن الطعن فى الأناجيل ومظاهر الاختلاف والتناقض التى تحتوى عليها •

---

(١٨) انظر : المغنى ١٤٢/٥ ، ١٤٣ .
(١٩) التثبيت ١٥٢ ، ١٥٣ .

ويعتبر بولس — فى نظر الكثيرين — المسئول الرئيسى عن ابتعاد النصارى عن الدين القديم فقد اتسم سلوكه — عند بعضهم — بالنفاق والانتهازية فكان يمدح التوراة لليهود ويقول لهم إنها سنة حسنة لمن عمل بها ويذمها للروم وغيرهم من أعداء موسى والأنبياء مدعيا أنهـا مهيجة للبشر وأن وضع شرائعها عن الناس به كمل بر الله وتم فضله وقد اعترف هو نفسه بذلك حين صرح : كنت مع اليهودى يهـوديا ومع الرومى روميا ومع الأرمانى أرمانيا(٣٠) •

وهو الذى حرم الختان استجابة لرغبة الروم التى تكرهه شديدا فى الرجال والنساء • فقالوا له فى ذلك فقال : نعم • هو ما ترون وما يجب عليكم ختان وإنما على بنى اسرائيل فإنها أمة قلفتها فى قلوبها •

وكان الخنزير حراما وسألته الروم — وكانت تأكله — فقال ما هو حرام وما يحرم على الانسان شىء يدخل جوفه وإنما يحرم عليه الكذب الذى يخرج منه •

وكانت الروم تصلى إلى مشرق الشمس ولا ترى وجوب الوضوء ولا غسل الجنابة ولا الحائض وكانت تزوج الوثنيين وسائر الأمم وبنو اسرائيل لا تفعل ذلك فقالت الروم لبولس فى ذلك فقال : تزوج المؤمنة بالكافر فإنها تطهره ولا ينجسها والولد بينهما يطهر •

وأحل لهم الخصاء وقد كانوا يخصون أبناءهم ويسلمونهم للبيعة وليس الخصاء من شريعة التوراة ولكنه عرف ببلاد الروم والحبشة وتعلمه الناس منهم •

ويتحمل « قسطنطين » ابن هيلانة الحرانية مع بولس قسطا وافرا من المسئولية فى العزوف عن دين عيسى فقد أقام ديانات الروم على

---

(٣٠) رسالة بولس الأولى الى الكورنثيين ١٩/٩ — ٢٢ •

حالها كما كانت وما أزال، إلا عبادة الكواكب وما زاد إلا تعظيم المسيح والقول بربوبيته وتعظيم الصليب[٢١] ، وكانت نتيجة ذلك أن النصارى ترومت ولم تتنصر الروم •

ولم تقف عملية التبديل فى عهد قسطنطين بل تفاقمت بعده ولكنها اتخذت شكلا جديدا عن طريق عقد المجامع التى ادعت مشروعية التحليل والتحريم •

---

(٢١) التثبيت ١٦٢ •

الانجيـــــل
عنـد النصـــارى

أعمدة المسيحية هى الأناجيل الأربعة ثم أعمال الرســل ثم الرسائل التى كتبها رسل المسيح •

والانجيل كلمة يونانية تعنى البشارة • وبينما يخبر القــرآن أن المسيح تلقى كتابا من الله بهذا الاسم فان المسيحيين يعتبرون المسيح الها وابن إله ويرون — تبعا لذلك — أن كلامه مقدس وكل ما قاله انجيل •

وقد حدث بعد مرور نصف قرن على المسيح أو أكثر أن كتبت الأناجيل كتبها جماعة من النصارى الذين عاشوا فى القرن الأول ركزوا فيها على ميلاده وبداية حياته ثم اعلانه دعوته ونهايته على الصليب دون أن يضمنوها كثيرا من تعاليمه فهى فى جملتها كتب سيرة وتلخيص حياة •

وكانت الأناجيل كثيرة جدا لكن الكنيسة اختارت أربعة منها — اختيارا غير معلل — وتركت الباقى[1] •

ويركز دارسو الأناجيل على ثلاثة منها هى انجيل متى وانجيــل مرقس وانجيل يوحنا أما انجيل لوقا فيدعونه لدرس خاص به لأنه تلميذ بولس ولم ير المسيح فكتابته صدى لما سمع واقتنع به من استاذه •

أما الأناجيل الثلاثة التى ركزوا عليها فهى :

---

(1) See Invitation to the New tastament twelf.

١ — انجيــل متى :

ومتى اسم لعشار كان يضع مكتبه أمام بحر الجليلى بكفر ناحوم ليجمع الضريبة الدولة الرومانية ، واسمه الأصلى « ليفى » وكلمة متى تعنى « هبة الله » وقد مر المسيح بهذا العشار فوقف أمامه ، ثم قال : اتبعنى فترك مكتبه وتبعه •

كان متى آثما فيما وصفه به الذين كتبوا عنه ولكن لا يعــرف من آثامه إلا أنه كعشار كان يجمع الأموال الكثيرة من الناس فيعطى الحاكم الضريبة المقررة له ويستبقى ما يزيد لنفسه فكان الثراء من الحرام باديا عليه(٢) •

وقد اقترح عليه بعض رفاقه أن يكتب لهم حياة المسيح ميلاده وأعماله وموته فكتب انجيله هذا ، واختلف الدارسون فى تعيين التاريخ الذى كتب فيه بين سنتى ٦٥ — ١٠٠ واختلف أيضا فى اللغة التى كتب بها فقيل كتب باللغة العبرية ليقرأه اليهود المؤمنون به وقيل كتب بالأرامية للسبب نفسه لأن الأرامية كانت هى الشائعة وليســت العبرية ، وقيل بل كتب بالسريانية ، ولكن اللغة التى كتب بهــ أصلا فقدت وظهرت بدلا منها نسخة يونانية • وهذه أيضا لا يعرف من ترجمها ولا متى تمت ترجمتها ومن ثم فلا تعرف مدى قدرة المترجم على الترجمة أو أمانته فيها(٣) •

ومتى نفسه كان يبشر بالمسيحية فى الحبشة ويقال إنه ذهب الى فارس ثم عاد الى الحبشة فناقشه الناس فى سلسلة النسب التى ذكرها فى أول انجيله لمريم ثم لم يرضوا عن كتابه فقتلوه(٤) •

---

(2) The twelf pestles, p. 22.

(3) Thoughy and Mcadem belief all the artielve, v. 2.
وقارن بما فى Invitation 209

(٤) انظر رد مفتريات المبشرين على الاسلام للدكتور عبد الجليل شلبى ص ١٠٧ مكتبة المعارف بالرياض الطبعة الثانية ١٩٨٥ — ١٤٠٦ •

هذا مجمل ما جاء عن هذا الانجيل فى الكتابات التقليدية ، أما الباحثون المحدثون فقد أثاروا حوله عدة ملاحظات من أهمها :

أن كاتب هذا الانجيل يهودى مسيحى اعتمد علىنصوص العهد القديم فى أماكن كثيرة وكان من طائفة من اليهود تنترع الى البعد عنهم ولكنها تتمسك بالكتاب المقدس[٥] .

ولكن هذه الملاحظة تؤدى الى ملاحظة أخرى وهى أن متى لا يمكن أن يكون عشارا لأنه متعمق فى دراسة العهد القديم والعشارون ليسوا على هذا الحظ من الثقافة ، ثم إنه يعرف عددا من اللغات اليونانية والأرامية والعبرانية . وتبدو عليه مهارة المدرس وحذقه فى تفهم أقوال المسيح ، وهذه الصورة لا تنطبق على محصل ضرائب . كما يبدو أنه هو ومرقس ولوقا اعتمدوا على مراجع متحدة وإن اختلفت تعبيراتهم .

وبناء على هذه الملاحظات وملاحظات أخرى رأى كولمان أن كاتب هذا الانجيل غير معروف الشخصية ، وقد كان آباء الكنيسة الأولى (أوريجين وجيروم) يعتقدون أنه حقا « ليفى » المحصل ولكن لم يعد أحد يعتقد هذا فى العصر الحديث . وأورجين وهو أشهر الآباء القدامى كافة كان ذا صلاح وتقوى ولكنه كان ذا غفلة بدليل ما فعله بنفسه[٦] .

وقد أكثر الأب « كانينجر » الاستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس من إيراد الأدلة على أن نسبة هذا الانجيل لمتى الحوارى غير صحيحة . ثم أبدى نقدا آخر للانجيل وهو إيراده روايات يصعب تصديقها خصوصا عن قيامة المسيح من قبره . اذ يذكر انشقاق حجاب الهيكل وتزلزل الأرض وتشقق الصخور وتفتح القبور وخروج كثير من

---

(٥) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل ٨٠ وما بعدها .

(٦) جب نفسه اخذا بظاهر قول المسيح أن هناك قوما يجبهم الله وقوما يجبون انفسهم وادرك بعد ذلك خطاه .

القديسين الراقدين الذين خرجوا بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة أمام الكثيرين[٧] .

وعند فجر الأحد نزل ملاك الرب وفتح قبر المسيح فخـافه الحراس ولكنه آمن مريم المجدلية ومريم الأخرى اللتين كانتا جالستين تجاه قبره وقال لهما : انه المسيح قد قام من قبره اذهبا إليه فى الجليل وها هو ذا القبر خال ، ولما ركضتا بخوف وفزع إلى الجليل قابلهما يسوع نفسه فى الطريق وأمرهما أن يخبرا تلاميذه ليقابلوه هناك . أما الحراس فذهبوا الى رؤساء الكهنة ليخبروهم بما حدث فقـدم لهم الكهنة رشوة سخية ليقولوا إن تلاميذه سرقوه فى غفلة منهم .

وأما التلاميذ الأحد عشر فذهبوا الى الجليل ورأوه ولكن بعضهم شك فقال لهم : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وهأنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر .

وهذه القصة لم تثبت — فى نظر بعضهم — عند التمحيص إذ كان الأمر يقتضى أن يذهب الحراس إلى رؤسائهم لا إلى الكهنة وكان ظهوره وحدوث كل هذه الظواهر الشاذة يحتم أن يؤمن به كل الناس حتى أعداؤه اليهود رهبة من هذه الخوارق[٨] .

ويلاحظ الأب « روجى » أن قيام المسيح من قبره فجر السبت وكان دفن قبله بيوم يجعل مدة دفنه ليلتين ويوما — هذا — مع أنه وعد تلاميذه أنه يمكث فى القبر ثلاثة أيام مدة مكث يونس فى بطن الحوت .

فانجيل متى — على هذا — ليس من عمل تلميذ المسيح وهو انجيل لعب فيه خيال كاتبه واحتوى أحداثا لا يقبلها المنطق .

---

(٧) انظر اصحاح ٥١/٢٧ — ٦٦ واصحاح ٢٨ بأكمله من هذا الانجيـل .

(٨) يوكاى ٨٢ ، ٨٣ .

يضاف إلى ذلك أمران : أولهما : أن سلسلة النسب التى جاءت فى أوله تختلف عما كتب لوقا ، وأنه فى مجمله يتحدث عن المخلص المنتظر الذى كان ينتظره اليهود فهو امتداد له أو أقرب أن يكون امتدادا للعهد القديم •

الأمر الثانى : أنه كتب فيما فهم بعض الباحثين لغرض سياسى • إذ تبرز فيه حماية الله للشعب اليهودى الذى كان يعمل على التخلص من حكم الرومان •

وأمام هذه الشكوك تأتى أقوال متضاربة عن البلد الذى كتب فيه • يقول موريس بوكاى عن متى : إنه لم يعد مقبولا اليوم القول بأنه أحد حواريى المسيح ، وهذا مما يفقده قداسته بل يفقد الثقة فيه مع أنه أهم الأناجيل الأربعة بالنسبة للتاريخ اليهودى والمسيحى وقد وضع فى رأس القائمة منها ، وفهم الكثيرون من هذا الوضع أنه أول الأناجيل كتابة وليس الأمر كذلك لأن انجيل مرقس أسبق منه •

٢ — انجيــل مرقس :

لم يكن مرقس من تلاميذ المسيح وحوارييه الاثنى عشر ولكنه كان من السبعين الذين نزل عليهم الروح القدس وأمروا بنشر الرسالة وتطبيقها وهو ابن أخت برنابا الحوارى الرسول وبرنابا فيما يقال هو الذى صدق بولس حين كذبه أصحاب المسيح فيما ادعاه من هبوط المسيح عليه ، وهو الذى جاء الى مصر يبشر بالمسيحية وكانت أنباؤها قد سبقته •

وكانت نهايته أنه سجن وشد من عنقه بحبل حتى مات •

والحديث عن انجيله كثير الاضطراب فهناك كتاب يرون أنه أول انجيل كتب وأنه كتب باللغة اليونانية بيما يرى غيرهم أن انجيل متى كتب قبله •

وقد أغضى مرقس عن ذكر ميلاد المسيح وبدأ بالحديث عن تعميده من يوحنا المعمدان وجاءت الأحداث التى ذكرها عن المسيح غـير مرتبة حسب الترتيب الزمنى . ويقال إنه رواه عن بطـرس كبير الحواريين وكل ما جاء فى هذا الانجيل مضمن فى انجيلى متى ولوقا .

ويضطرب الكتاب أيضا فى تحديد كتابته بين سنتى ٦٠ ، ٨٠ ويقال إن بطرس نفسه مات سنة ٦٣ . وفى أوائل القرن العشرين قرر النقاد اللاهوتيون أن انجيل مرقس قصة من عمل جماعة لم ير واحد منهم الآخر وأنها روايات جمعت بدون ترتيب وأنه لا يمكن أن ينظر إليها كمصدر حقيقى لحياة المسيح .

ومما يذكر أنمرقس كان ينكر الوهية المسيح ويقرر أنه مجرد بشر وكان استاذه بطرس يقرر هذا[٩] .

وبينما يذكر متى قصة قيامة المسيح على النحو الذى سـلف فإن مرقس يذكرها على نحو آخر إذ يروى أن ملاك الرب كان جالسا داخل القبر وأنه ظهر أولا لمريم المجدلية ثم ظهر بهيئة أخرى لاثنين من تميذه ثم ظهر للأحد عشر ووبخهم لعدم ايمانهم بظهوره ثم ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله[١٠] .

ولم يقطع أحد فى مرقس هذا أهو تلميذ من تلاميذ المسيح أم تلميذ لبعض تلاميذه والكثيرون يرون أنه لم ير المسيح أصلا .

ودراسة هذا الانجيل تظهر أنه قد أضيف اليه شىء عن خاتمة المسيح فى الاصحاح السادس عشر لأن هناك مخطوطتين يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع ليس بهما هذه الزيادة ، وهذا يعنى أن النصـوص

---

(٩) انظر المسيحية للدكتور احمد شلبى ومحاضرات فى النصرانية للشيخ ابو زهرة .

(١٠) انظر اصحاح ١٦ من انجيل مرقس .

المقدسة عدلتها يد بشرية فى أزمنة مختلفة وهو ما يتعجب منه موريس بوكاى[١١] •

ومن التضارب بين هذا الانجيل والأناجيل الأخرى ما جاء فى الاصحاح الثامن[١٢] أن المسيح قال لجماعة من الفريسيين : « لن يعطى هذا الجيل آية » بينما جاء فى انجيل لوقا : لن يعطى إلا آية واحدة هى آية يونس وفى انجيل لوقا أيضا فيض من المعجزات وهذا يؤدى إما إلى كذب الانجيل أو نفى المعجزات •

٣ — انجيـــل لوقـــا :

لوقا رجل من أنطاكية ليس يهوديا ولا فلسطينيا كان طبيبا وقيل بل كان مصورا وهو من تلاميذ بولس •

وقد فصل القس ابراهيم سعدة من كتبت لهم الأناجيل فذكر أن انجيل لوقا هذا كتب لليونان وانجيل متى كتب لليهود وانجيل مرقس كتب للرومان وانجيل يوحنا كتب للكنيسة العامة وإن كان البعض يلاحظ أن اجيل لوقا كتب لكل الناس[١٣] •

ولوقا كتب أيضا أعمال الرسل واختلف فى تاريخ كتابة انجيله ما بين سنتى ٨٠ و ٨٥ ولو أن بعض الكتاب وضعه فى تاريخ متأخر عن هذا •

والظاهرة التى لاحظها الأقدمون هى أن هذا الانجيل حافل بالحديث عن العلاقات الاجتماعية وخصوصا بين الأغنياء والفقراء • وقد أقام الدكتور « دافنز » دراسة مطولة حول هذا الانجيل أثبت فيها

---

(١١) ٨٧ •

(١٢) ١١/٨ ، ١٢ •

(١٣) د. عبد الجليل شلبى — رد مفتريات المبشرين على الاسلام ١١٣ •

أن هناك اختلافات فى شخصية الكاتب وفيمن كتب لهم هذا الانجيـل وفى تاريخه وأن صاحبه لم ير المسيح ولا تتلمذ على واحد من حوارييه وتعاليمه كلها من بولس[١٤] .

وذكر كولمان أن رواياته عن طفولة المسيح تختلف عما فى متى فكل منهما أعطاه نسبا يختلف عن الآخر[١٥] مما جعله موضع شك بل مما وضع الأناجيل كلها موضع الشك والارتياب .

٤ — انجيـل يوحنـا :

يوحنا أحد حواريى المسيح ابن صياد يدعى زبيدى وامرأة تدعى سالوم مر المسيح به وبأخيه وهما صبيان فتعلقا به وتبعاه وظل يوحنا يبشر بالمسيحية حتى مات طاعنا فى السن .

وانجيله هو الانجيل الوحيد الذى ينص صراحة على أن المسيح اله ولكنه لم يسلم من الشكوك والطعـون وجاء فى دائرة المعـارف البريطانية أنه مزور وأن مؤلفه شخص آخر انتحل اسم يوحنـا الحوارى[١٦] واختلف فى تاريخ كتابته ما بين سنتى ٦٨ ، ٩٨ .

وأكثر الباحثين على أنه كتب لغرض خاص هو إثبات الوهيـة المسيح ولعله لهذا نسب الى أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر وإذن فأمره كما قال « ديفز » أن الكنيسة هى التى أخرجته لخدمتها فهو تابع لها وليست هى التابعة له . ويقـول بوكاى[١٧] أننا مغمورون بالغموض والخلط فيما يتعلق بأبوة هذا الكتاب . أما كولمان فيرى أن

---

(١٤) السابق ١١٤ .
(١٥) بوكاى ٨٨ .
(١٦) محاضرات فى النصرانية ٤٩ .
(١٧) ٤٩ .

له أغراضا لاهوتية خاصة وأنه يضع على لسان المسيح ما يدعى أن روح القدس نفسه هو الذى أنزله[١٨] •

ولم يحو انجيل يوحنا كل ما روت الأناجيل الأخرى وقد أهمل رواية تأسيس القربان المقدس وهو ركن ذو شأن فى المسيحية كما أن به روايات لم ترد فى الأناجيل الأخرى ودراسة هذه الموازنة قد تطـــول •

وبينما يلاحظ من الأناجيل الثلاثة تحديد رسالة المسيح بزمن لا يتجاوز العام يلاحظ من انجيل لوقا أن بعثة المسيح دامت أكثر من عامين •

وقد ختم بوكاى حديثه عن هذا الانجيل بتلك العبارة : « إذن فمن يجب أن نصدق ؟ أنصدق متى أم مرقس أم لوقا أم يوحنا •

ومما يسترعى النظر أن تلاميذ المسيح الذين رافقوه فى تنقلاته وأكلوا معه وباتوا وأصبحوا أنكروه عندما ظهر لهم بعد دفنه وحتى مع تكرر ظهوره لم يكونوا يعرفونه وكان يوبخهم تارة ويظهر لهم أثر الصلب فى جسده والمسامير فى يديه تارة أخرى كى يعرفوه •

وليس هناك توضيح كاف عن حياته بعد موته بل هناك تضارب هل نظرت مريم المجدلية وراءها فرأته هل رآه أيضا تلميذه والرفيق الذى كان معه ؟ وهل ذهب توا الى أمه واخوته ليبشرهم ؟ وهل ظهوره فى أرض الجليل كان مقصورا على تلاميذه أم رآه الناس جميعا وقام له قوم من قبورهم •

أقوال متضاربة فى الأناجيل والذى يتبادر إلى الذهن من اختلافها فى هذا الحادث وإيهام أهم موقف فيه أنها كانت أحاديث شفوية داخلها الخيال فجاء أصحاب الأناجيل فأخذ كل بما سمع وارتضى •

---

(81) The Modern thoght and belief.

الأناجيل المحـــذوفة :

معروف أنه كان يوجد خلال القرن الثانى عشر الميلادى عدد من الأناجيل ولكن المجمع المسيحى فى نيقية اختار منها الأربعة الســالفة الذكر واعتبرت الأخرى غير قانونية وقد ذهبت هذه الكثرة إذ قرر المجمع اعدامها ، لكن عثر أخيرا على مزق منها وبعضها يذكر ميلاد المسيح على نحو ما جاء فى القرآن من أنه ولد من غير أب .

وأهم هذه الأناجيل المفقودة هو انجيل عيسى الذى يشير اليه مرقس فى قوله : « قــد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل »[١٩] وأناجيل كثيرة وجدت أسماؤها ولم يوجد منها كاملا إلا انجيل برنابا .

وكثيرون من الباحثين المسيحيين أشاروا إلى كم التناقضــات الموجودة فى الأناجيل ودلوا على مواضعها فى كل انجيل[٢٠] .

أما بولتمان فيرى أن الحكم والأمثال الكثيرة التى تذكرها الأناجيل موجودة من قبل فى العهد القديم وفى اللغة الأرامية وقد نسبت الى المسيح من الأتباع المتأخرين وأن القوانين والأحكام التى تنسبها إليه الأناجيل أكثرها مما اخترعه الأتباع اختراعا ولم تكن من كلامه وتبدو عليها الصبغة الهيلنية وضرب لذلك أمثلة بما فى مرقس الاصحاح الثانى والاصحاح السابع[٢١] حيث تبدو النزعة الفلسفية والغنوصية .

---

(١٩) مرقس ١/١٥ .

(٢٠) انظر مثلا قصة مقابلة المسيح للانسان الذى تلبسه الشيطان فى متى ٨/١٢ — ٢٩ وفى مرقس ٥/١ وفى لوقا ٨/٢٦ — ٣٠ تجد اختلافا واسعا فى سردها وايرادها .

(٢١) ٢/١٧ ، ٧/١٥ .

والنص الأول يتحدث عن قصة نفر من الفريسيين والكتبة رأوا تلاميذ المسيح يأكلون بأيد دنسة غير مغسولة فعابوا عليهم ذلك ولكن المسيح وبخهم بأنهم يتمسكون بتعاليم البشر بينما تركوا وصية الله وقال : ليس شر من خارج الانسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه لكن الأشياء التى تخرج منه هى التى تنجس الانسان لأن ما يدخل الانسان من الخارج يدخل إلى الجوف لا إلى القلب أما الذى يخرج فانه يخرج من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة : زنى قتل سرقة تحريف جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الانسان •

والنص الثانى جاء فى حادثة أخرى حيث كان المسيح يجالس العشارين والخطاة ويأكل معهم فعابوه فقال : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى لم آت لأدعوا أبرارا بل خطاة •

وكثيرون يرون أن كل هذه الأفعال وربما الأحداث من وضع المتأخرين قد تذفوها — أرامية أحيانا ويونانية أحيانا أخرى — فى فم المسيح ليكسبوها قداسة •

وأخيرا فليست الأناجيل ولا انجيل عيسى عليه السلام معجزة يتحدى بها كما هو الحال مع القرآن الكريم •

الخاتمـــة

الحمـد لله رب العالمـين .. وبعد :

فيما يتفق فيه النصارى مع المسلمين فى شأن عيسى عليه السلام أنه ولد على غير شاكلة الناس — من غير أب وأنه عـاش سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين وأنه وجيه عند الله فى الدنيـا والآخرة وأنه أتى بالانجيل وصدق بالتوراة وجاء بشريعة دعـا الناس اليهـا .

وأن اليهود اضطهدوه وكذبوه وأرادوا صلبه وقتله وصلبوه وقتلوه عند النصارى ، ورفعه الله عند المسلمين .

واختلفوا فيما وراء ذلك ومحور اختلافهم فى شأنه علاقته مع غيره مع آدم ومع البشر ومع الله . فعلاقته بآدم عند النصـارى ليست علاقة أبوة وبنوة وإنما علاقة تكفير عن الخطيئة ، وعلاقتـه بالبشر ليست علاقة أخوة وإنما علاقة فداء ، وعلاقته بالله ليست علاقة عبودية ونبوة ورسالة وإنما علاقة نبوة والوهية ، ومن هذه العلاقات نشأت جميع الاختلافات بين المسلمين والنصارى فى عيسى وما جاء به ، وكل يرى أنه الحق : النصارى لأنهم قومه وأتباعه وأقرب الناس إليه عرفوا ذلك من حوارييه الذين عاصروه وعاشوا معه وكانوا أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ومن الأناجيل وهى ثقة عندهم ، والمسلمون عرفوا ما عرفوا مما جاء به القرآن فى حقه وشأنه ومن أصدق من الله قيلا !!

وكنا نستطيع أن نعفى أنفسنا من المقارنة ونلتزم بما جاء به القرآن ، ولكنا نريد أن ننصف القوم ونتحاكم الى العقل ولا نحكم عليهم بالقرآن وإن كان هو الحكم العدل .

فهل يعقل أن يمر إله بمراحل العمر فيكون جنينا وطفلا وشابا ورجـلا ... !!

وهل يعقل أن يكون إله يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟

وهل يعقل أن يكون إله يعجز عن قضاء حاجات نفسه ويحتاج إلى معونة الآخرين !

وهل يعقل أن يكون إله لا يستطيع أن يدرأ عن نفسه العذاب والألم !

ثم هل يعقل أن يذنب آدم فيأثم بنوه أو يذنب آدم فيكفر غيره وعندهم أن النفس التى تذنب هى تموت وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ! • وماذا عمن وجدوا بين آدم وعيسى أهم آثمون أم مفتدون ؟؟

وهل يعقل أن يلد البشر الها أو يتولد الاله من إنسان ؟ نعرف أن الانسان مخلوق من طين والملائكة من نور وإبليس من نار فمم خلق عيسى ؟ أمن طينة أمه أم من نور جبريل أم هو إله خالق وليس مخلوقا !!

وأين كان قبل أن تلده مريم أفى الأرض يتقلب فى الأرحام أم فى السماء يتلالأ بين الأنوار أم لم يكن شيئا مذكورا ؟

والغريب أن من يقولون إنه بشر ينفون عنه الصلب والقتل ، ومن يقولون إنه إله يقومون بصلبه وقتله إله يموت !! لا تتحمله عقول البشر •

ولماذا كل ذلك الأنه من غير أب فماذا عن آدم وماذا عن حواء ؟

لم نر انسانا يتولد من ملاك ولا جانا يتولد من انسان فكيف يعقل أن يتولد من إله إنسان !

ثم ما طبيعة أم الاله أهى كذلك أم ليست من طبيعة الاله ؟

وهل تجربة عيسى ستتكرر وتكون ثمة الهة على الأرض أم هى تجربة فريدة اختص بها ؟ • واذا وجد من البشر الهة أفيجوز أن يوجد ذلك فى كائنات أخرى ؟؟

وهل عيسى إله فقط أم نبى ورسول أيضا ؟

وهل الانجيل موحى إليه أم موحى منه أم أنه هو الانجيل ؟

أو ليست الملائكة أقرب أن يكونوا الهة من البشر ؟

أمن أجل الخطيئة وجد آدم ومن أجل آدم وجد عيسى • فآدم وجد ليخطىء لا ليعمر الأرض ويخلف الله فيها وعيسى وجد ليكون كفارة وفداء لا ليكون نبيا ورسولا !!

وهل لابد أن يكون التكفير بصلب الاله أو ابن الاله أفلا كان من الممكن أن يكون بغير ذلك أو بدونه !!

وآدم خالف النهى وكم من نهى خالفته ذريته من بعـــده فما الفرق ؟ ناهيك عما تحدث به القرآن من أنه نسى ولم نجد له عزما وأنه تلقى كلمات من ربه فتاب عليه •

ولماذا لم يعاقب الله آدم بذنبه ويقتص منه باثمه أم أنه فوق العقاب والمؤاخذة • أم تراه سبحانه لم يشأ أن يعاقب آدم حتى لا يتحقق ظن الملائكة أو تراه لم يشأ أن يعاقب آدم ليكون أذل لابليس • أم ماذا ؟

لقد وكز موسى الفتى بعصاه فقتله فماذا فعل الرب ؟ وقتل أحد ابنى آدم أخاه فماذا فعل ؟ أيهما أشد القتل أم الأكل • كلاهما منهى عنه لكن القتل أشد !

وكيف يكون الله غفورا رحيما وهو يأخذ البشرية جمعاء بذنب أبيها وكيف يكون عادلا من يعفو عن الآثم ويأخذ البرىء أو يأخذ البرىء بذنب المخطىء !!

ثم هل كان يعرف عيسى أنه إله أو ابن إله واذا كان يعـــرف فلماء خشى القتل والصلب ؟

والذين صلبوا الاله وقتلوه أعاصون أم طائعون ؟!

أنهم يرون أنهم قتلوه لأنه كان يجدف على الله ويدعى ملك بنى اسرائيل فطاردوه وحاصروه وصلبوه وقتلوه !

وإذا كان من أجل الفداء وجد عيسى فلماذا لم يتقدم بمحض إرادته فى موقف معين ووقت معين ويعلن أنه سيقدم نفسه للصلب والقتل ليفتدى البشرية الآثمة ؟ !

أو كان عيسى يعرف أنه سيصلب ويقتل أصلا أم أنه لم يعرف إلا حيث جدت الحوادث !!

قبر عيسى وقام وكرز بعد ذلك فلماذا كان هذا فى السر دون العلن أم خشى أن يصلب ثانية ويقتل !!

وماذا عن الذين صلبوه وقتلوه بعد أن عرفوا قيامته أما كان أولى بهم أن يسارعوا إليه ليغفر لهم خطأهم أو خطيئتهم !!

وماذا عن عيسى يوم القيامة أهو عبد محاسب أم رب محاسب أم بين بين يجلس عن يمين أبيه • وهل سيحاسب آدم مرة أخرى وهل الذى سيحاسبه الله الآب أم الله الابن وإذا كان عيسى ذا طبيعتين فهل عيسى الرب سيحاسب عيسى الانسان أم سيعفيه من الحساب ، وهل سيحاسبنا يوم القيامة رب واحد أم ثلاثة أرباب ؟ !!

• • • • • • • •

وغير ذلك كثير من التساؤلات التى يمكن أن تثار فى هذه القضية والتى يقف العقل أمامها عاجزا حائرا ••• !!

وقد يقال إن هذه الأمور بعيدة ولكنها ليست مستحيلة عقلا • أو يقال أن أمور الدين لا تسعها العقول ولا ينبغى أن تتحكم فيها أو يقال غير ذلك ولا يسعنا عندئذ إلا أن نردد قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف

ونتمثل قول الله تعالى : « لكم دينكم ولى دين » •

ثبت بأهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- كتب الصحاح
- الكتاب المقدس [العهد القديم والعهد الجديد]
- الأناجيل الأربعة
- انجيل برنابا
- أعمال الرسل
- دائرة المعارف الاسلامية
- دائرة المعارف البريطانية
- القاموس المحيط
- لسان العرب

— ابن تيميـة : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، القاهرة ١٩٠٥ .

— ابن حـزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحـل ، القـاهرة ١٣٢١ هـ .

— ابن خلـدون : المقدمة ، طبعة مصطفى محمد ، القاهرة .

— ابن سـعد : طبقات ابن سعد ، بيروت ١٩٥٧ .

— ابن العبـرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ .

— ابن قيم الجـوزية : هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، القاهرة ١٩٠٤ .

— ابن كثـير : تفسير القرآن العظيم .

— ابن النـديم : الفهرست ، طبعة فلوجل ، لايبزك ١٨٧١ .

— ابن هشـام : السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٧٩ .

— أبو العـلا عفيـفى : نظريات الاسلاميين فى الكلمة ، القـاهرة ١٩٣ .

— أبو حيـان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ، بيروت .
: البصائر والذخائر ، دمشق ١٩٦٤ .

— أبو زهـرة : محاضرات فى النصرانية ، القاهرة ١٩٧١ .

— أحمد حجازى السـقا : أقانيم النصارى ، القاهرة ١٩٧٧ .
: نبوءات عن محمد فى الكتاب المقدس ، القاهرة ١٩٧٨ .

— أحمـد شـلبى : المسـيحية .
: مقارنة الأديان ، الطبعة الخامسة .

— أحمد عبد الغفور عطار : الديانات والعقائد فى مختلف العصور ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة •

— اخــوان الصــفا : الرسائل ، القاهرة ١٩٢٨ •

— الباقــلانى : كتاب التمهيد ، نشر يوسف مكارثى اليســوعى ، بيروت ١٩٥٧ •

— اعجاز القرآن ، القاهرة ١٩٥٤ •

— بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ، الطبعة الثانية ، الكويت ١٩٧٦ •

— التفتازانى : أبو الوفا الغنيمى : دراسات فى الفلسفة الاسلامية •

— الأب بولس الياس اليسوعى : يسوع المسيح •

— الجاحــظ : حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ ، نشر السندوبى ، القاهرة ١٩٣٣ •

— الرد على النصارى ، نشر يوشع فنكل ، القاهرة ١٣٨٢ هـ •

— رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٦٤ •

— الجرجانى : التعريفــات ، طبعة الحلبى •

— الجــوينى : شــفاء الغليل فيما وقع فى التوراة والانجيــل من التبديل ، بيروت ١٩٦٨ •

— جوبيروس اليافى : المسيح بن مريم ، بيروت ١٩٦٦ •

— حبيب ســعيد : أديان العالم ، الكنيسة الأسقفية ، القاهرة •

— الحسينى : القاسم بن ابراهيم الحسينى ، الرد على النصارى ، نشره T. D. Matteo فى RSO فى سنة ١٩٢١ •

— قاموس الكتاب المقدس ، بيروت ١٩٧١ •

— القس حنا جرجس الخضرى : يسوع والغيورون ، مجلة كلية اللاهوت للشرق الأدنى ١٩٨٠ .

— الخزرجى : مقاطع الصلبان ، تونس ١٩٧٥ .

— الخياط : كتاب الانتصار والرد على ابن الروندى الملحد ، بيروت ١٩٧٥ .

— الرازى : التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب ، طبعة طهران .

— رحمة الله بن خليل الهندى : اظهار الحق ، القاهرة ١٩٦٤ .

— سبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة : ترجمة حسن حنفى ، القاهرة ١٩٧١ .

— الشهرستانى : الملل والنحل ، القاهرة ١٩٦٨ .

— شارلى شابلن : مذكرات ، ترجمة صلاح حافظ ، طبعة الهلال .

— الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٧ .

— جامع البيان عن تأويل أى القرآن (تفسير الطبرى) القاهرة ١٩٥٤ .

— العامرى : أبو الحسن العامرى : كتاب الأعلام بمناقب الاسلام ، القاهرة ١٩٦٧ .

— القاضى عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة ، بيروت ١٩٦٦ .

— المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، القاهرة ١٩٦٥ .

— عبد الجليل شلبى : رد مفتريات المبشرين على الاسلام ، مكتبة المعارف بالرياض ، الطبعة الثانية .

— عبد الرزاق نوفل : يوحنا المعمدان ، النبى يحيى عليه السلام ، الطبعة الثانية .

— عبد المجيد الشرفى : الفكر الاسلامى فى الرد على النصارى ، تونس ١٩٨٦ •

— عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، دار احياء التراث العربى •

— العــراقى : د• عاطف ، تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ •

— العقـــــاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه •

— اللــه •

— المســيح •

— على بن ربن الطبرى : الدين والدولة فى اثبات نبوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ١٩٢٣ •

— الرد على النصارى ، نشرة الأبوان : خليفــة وكونشك ، بيروت ١٩٥٩ •

— الغــزالى : أبو حامد : الرد الجميل لالهية عيسى بصريح الانجيل ، باريس ١٩٣٩ •

— الفــارابى : كتاب الملة ونصوص أخرى ، بيروت ١٩٦٨ •

— فتحى عثمان : مع المســيح فى أناجيله الأربعة •

— القرافى : شهاب الدين أحمد بن ادريس ، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، القاهرة ١٩٠٤ •

— القرطبى : الجامع لأحكام القرآن •

— الأب قنواتى : فلسفة الفكر الدينى بين الاسلام والمسيحية ، ترجمة الشيخ صبحى الصالح •

— الكنــدى : أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى ، مقــالة فى الرد على النصارى •

— الكنـــدى : عبد المسيح بن اسحاق الكندى ، رسالة الكنـــدى الى الهاشمى يرد بها عليه ويدعوه الى النصرانية ، لندن ١٨٨٥ .

— محمود أبو رية : دين واحد على ألسنة جميع الرسل ، القـــاهرة ١٩٧٠ .

— المقـــدسى : المطهر بن طاهر : البدء والتاريخ ، باريس ١٩١٠ .

— موريس بوكاى : القرآن والتوراة والانجيل ، دار المعارف ١٩٨٢ .

— ميخائيل نعيمة : من وحى المسيح ، بيروت ١٩٧٤ .

— الناشىء الأكبر : مسائل الامامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط ، فى المقالات ، بيروت ١٩٧١ .

— الهاشـــمى : رسالة الهاشمى الكندى يدعوه بها الى الاســلام ، لنـــدن ١٨٨٥ .

— اليعقـــوبى : أحمد بن أبى يعقوب : تاريخ اليعقوبية ، بيروت ١٣٧٩ .

— وول ديورانت : قصة الحضارة .

المراجـــع الأجنبيـــة

— The Oxford Dictionary of the Church the particle Relagins.

— The Khoury les thelogiens byzanbinset.

— Sweetman G. W. Islam and Chrictian.

— Thedogy.

— Satry maged : Somporadoxical Implications of Moctozilite view of freo will. M. W. vol. X lili by Deboer.

— What. W. Free will.

— M. Abd Essalam. le themede mor dencle poesie Tunis 1977.

— Massignan Textes Inedits.

— R. Blochere la Coran traduction Paris 1989.

— Invitatron to the New tastament twelf.

— The twelf pestles.

— Thoughy and mcaden belief all the artielve.

فهرست الموضوعات

كتب للمؤلف

- أسهل طريق فى النحو والتطبيق ، مطبعة راشد ، القاهرة ١٩٧١ •
- قضية الألوهية فى الفلسفة ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٨٢ •
- عقيدة المعاد بين الدين والفلسفة ، دار العروبة بالكويت ١٩٨٤ •
- البعث والنشور للبيهقى (تحقيق) ، دار العروبة بالكويت ١٩٨٤ •
- أصالة التفكير الاسلامى ، مكتبة دار العلوم ١٩٨٤ •
- فى العقيدة ، مكتبة دار العلوم ١٩٨٥ •
- أصول الملامنية وغلطات الصوفية للسلمى (تحقيق) القاهرة ١٩٨٥ •
- الفلسفة : أعلامها ومعالمها ، مكتبة دار العلوم ١٩٨٩ •
- الأخلاق دراسة فلسفية دينية ، القاهرة ١٩٩٠ •
- العقيدة · دراسة مقارنة ، القاهرة ١٩٩٠ •
- المنطق : عرض ونقد ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٩١ •
- المنطق : عرض ونقد ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٩١ •
- التصوف : عقيدة وسلوكا ، مكتبة الزهراء ١٩٩٢ •
- المسيحية بين النقل والعقل ١٩٩٢ •

تحت الطبع

- سياسة النفوس لسنان بن ثابت (تحقيق) •
- من قضايا التراث •
- كتاب تقويم النظر لابن الدهان (تحقيق) •

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٩٢ / ٥٩٢٤
I. S. B. N
977 — 00 — 3703 — 6

المطبعـة الاسـلامية الحـديثة
٤٢ (أ) شـارع دار السـعادة ـــ حلمية الزيتون
القاهرة ـــ تليفون ٢٤٦٦٩٣٨